ومضات معرفية

تأليف:

محمد عزيز عبد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

ومضة معرفية

تاقت نفسي للمحادثة والوصول إلى المعرفة الحقيقية لمجريات أمور الإسلام وتوزّعه مذاهب عديدة ومختلفة ..ومال قلبي إلى البحث والتّمحيص والتدقيق فيما رُوي ونقل عن الرسول الأكرم نبيّ الرّحمة محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم وفيما سجّلته الكتب المتناقضة عن سيرة الخلفاء الراشدين والحكام الأمويين والعبّاسيين ، ولا أكتم أنّ

الباعث في نفسي إلى هذه الدّراسة كان نتيجةَ اللّقاءات المتكرّرة بالدّكاترة والمحاضرين الّذين كانوا أساتذةً لي في كلّية الفقه في النّجف الأشرف وعلى الأخصّ الدّكتور المحاضر في الفلسفة الحديثة الأستاذ صالح الشّماع والدكتور أحمد حسن المحاضر في علم النّفس والعلاّمة السّيد محمد تقي الحكيم أستاذ الفقه المقارن ، والعلاّمة الشّيخ كاظم شمشاد أستاذ مادّة الفلسفة الإسلامية . وأخصُّ أستاذي في الحوزة العلمية لمادة الأصول والفقه العلاّمة نجلِ آية الله العظمى السّيد أبي القاسم الخوئي زعيم الحوزة العلميّة النّجفيّة السّيد جمال الدّين بالعرفان ، لِما كان له من باعٍ في الاستزادة ، وفتح مختلف الأبواب ، ووضع كلّ الاحتمالات ، والوصول في النهاية إلى النّتيجة الأسلم وإن كانت تخالف وجهة نظر أكبر العلماء .. ولمرافقته مدّة خمس سنوات ، كنت أطلب فيها العلم داخل الحوزة في النّجف الأشرف .

المسألة الأولى : توحيد الله ومعرفته .

وكانت أوّل المسائل الّتي أشعَلتْ في داخلي نور حبِّ الوصول إلى الحقيقة تتعلّق بمبحثٍ من مباحث علم التّوحيد : ألا وهي معرفة الله سبحانه وتعالى وكيف تتمُّ معرفته ووفق أيّ الأسس والقواعد . ؟.

خضتُ المسألة مع نفسي ومع أساتذتي ، وسمعتُ وجهات النّظر المختلفة ، واطّلعت على ما كُتِب ونُقِل . ووقفتُ في النّهاية عند كلام الله سبحانه ، والسُّنَّة النّبويّة ، وقول الإمام عليّ (ع) على أنّني أدركتُ

حينها أنّ المسألة في أصول الدّين ولا تقليد فيها . إنّما على المرء أن يبحثَ في نفسه وفيما حوله ومما أعطاه الله من إمكانات ، ومواهب ، وعلوم ، ومعارف ، وإلى أن يصل إلى ما يشفي غليله ، ويروي ظمأه ، ويوصل به إلى برِّ الأمان ، شريطةَ ألاّ يقع بالشّرك بالله .

ارتحتُ للنّتيجة الّتي وصلتُ إليها ، وقُوبِلَتْ بالاستحسان من الجميع ممن خضتُ الحديث معه بشأنها . وإنْ أضاف البعض منهم التّأكيد على أنَّ معرفة الله تتمايزُ من شخصٍ إلى آخر وضوحاً ومهما بلغت مرتبة النّاظر إلى الله علُوّاً ود نوّاً .. وسواء كان رسولاً منزلاً أو ملكاً مقرّباً أو رجلاً امتحن الله قلبه بالإيمان .

ولن أنسى ملاحظة الدّكتور الشّماع بعد التّوصّل إلى ما أسلفته من نتيجة مرضيّة ، إذ قال متسائلاً : فلِما التّشتُّتُ والتّفرُّق والتّنازع والتّكفير الّذي جرى ويجري بين المسلمين في هذا . وقد قال تعالى : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) أليس ما نحنُ فيه نتيجةً منطقيّةً ومصداقاً لِما تشير إليه الآية الكريمة .. وهذا ما كان يخالج نفس كلِّ واحدً جالسته وحادثتُه في هذه المسألة ، وإن لم يكن ليصرّح بذلك خوف العواقب التي يمكن أن تترتّب على ذلك من أيام محمد (ص) وإلى هذه الأيّام . . .

إنَّ في الاعتراف بهذه الحقيقة ، اعترافاً بحرّية العقيدة الّتي منحها الله لعباده والموثّقة بقوله تعالى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)

.. لا بل في الإقرار بها ترجمةٌ لسلوكيّة الرّسول الأعظم محمد (ص) مع كلّ من عايشه من الكتابيين ، والمنافقين ، والفاسقين ، والمسلمين ، والمؤمنين . . إن كنّا نريد الحقيقة والوصول إليها . وإنّ المؤمن من خلال الإيمان بها يتمكّن من التّعرّف على المؤمنين الأوائل الّذين عاصروا الرّسول الأكرم (ص) ومن عاش في زمن الخلفاء الرّاشدين ، والعصر الأموي ، أو العباسيّ ، وغيره ، وإلى يومنا هذا .. لا بل من الممكن للباحث أن يدرك سلوكيّة أولئك المؤمنين وعلى مرّ الزّمن سواء وافق ذلك أهواء الحكام أم لا . ويبصرَ حقيقة أولئك الشُّهداء المجهولين ، والرّجال المجاهدين الذين انتشر الإسلام بفضل وعيهم وإدراكهم للعقيدة الحقّة ، والتزامهم بها .. وأنّ الإسلام والمسلمين اليوم لَمدينون لأولئك بما قدّموا من مواقف خالدة وبطولات وتضحيات لا مثيل لها سواء فيما أسموه الفتوحات أم في غيرها .. وإنّنا في هذا العصر لفي أشدّ الحاجة لأمثال أولئك الّذين ترفّعوا عن النّزاع والخلاف ، وعملوا دائماً لتكون كلمة الحقّ هي العليا ، وفي كلّ مجال من مجالات الحياة ، وتناسوا انتماءهم القبلي ، أوالعنصري ، إذ وضعوا أمام أعينهم عظمة العدالة ، واتساع رحمة الله ، وحقيقة أنّ الله يمهلُ ولا يهمل . وأنّ السّاعة آتية لا ريب فيها . وأنّ الموت أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد .. فكانوا بسلوكهم يترجمون إيمانهم المعرفيّ بالله ورسوله .. فما قدرت الجبابرة أن تحيد بهم عن الطّريق المستقيم الّذي رسمه ربُّ

العالمين ، وما استطاعت الدّنيا بما فيها من مباهج أن تثنيهم عمّا طلبوه ، وعرفوه معرفةَ حقٍّ ويقين . . . .

المسألة الثَّانية : النبوّة .

مع أنَّ هذه المسألة من أصول الدّين ، إلاّ أنَّني وجدتُ أنَّ الجميع قد ساروا فيها وفق المصالح ومقتضيات التّغطية على المساوئ والأخطاء ، التي ابتليَ بها بعضُ سادة المسلمين بعد رسول الله (ص) . . ومسألة النّبوّة تأتي بالدَّرجة الثَّانية من الأهمِّيَّة بعد التوحيد ، وقد انبثقت عمّا بهر العقول السّليمة من عظمة الخالق وحكمته وعدالته ، فكانتْ موضع الحيرة والتّردّد والخلاف لدى البشر في المجال المعرفي اليقيني لربِّ العزّة .. على أنّه سبحانه لا يمكن أن يترك مخلوقاته ، وهو الرّحمن الرّحيم تسير خبط عشواء ، فأوجب على نفسه الرّحمة بهم وأرسل لهم الأنبياء لهدايتهم (وإن من أمّة إلاّ خلا فيها نذير) . وفي هذا كان القاسم المشترك بين الموحّدين . إلاّ أنَّ ما شغل بالي وأخذَ منّي لبّيَ وعقلي يتعلّق بحقيقة الأنبياء التي سار النّاس فيها على وجهات ثلاث :

الأولى : أنّ الأنبياء بشرٌ ويجري عليهم ما يجري على البشر من الأمور الطّبيعيّة من حياة أو موت أو نوم أو مرض أو جوع يأكلون ويشربون ويتناسلون ويقعون في الخطأ إلاّ في الوحي والتّبليغ عمّا أمروا به من قبل ربّ العالمين .

والثّانية : يتوافق أصحابها فيما ذكروه عن الأنبياء من أنّهم بشرٌ ويجري عليهم ما يجري على البشر من الأمور الطّبيعيّة من حياة ، أو موت ، أو نوم ، أو مرض ، أو جوع ، ويأكلون ويشربون ، إلا أنّهم لا يقعون في الخطأ لا في الوحي والتّبليغ ولا في غيرهِ من أمور الحياة ، إذ هم معصومون عن الخطأ . وفي هذا ضرورةٌ شرعيّة عقلانيّة لا تنازل عنها ، ليستتبَ لهم أمر الشّرع ، وتستقرَّ الأحكام ، وتثبت القوانين الإلهيّة في تنظيم علاقات بني البشر وفق مشيئة الله سبحانه : (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌّ يوحى) .

والثّالثة : قامت على اعتبار أنَّ ما اتفقت عليه الوجهتان السّابقتان ما هو إلاّ من قبيل التّلبيس الذي أشارت إليه الآية القرآنية : (ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون) سورة الأنعام/8 /. وحقيقة الرُّسل عندهم غير ما جعلوا به ، وأنَّ ما أظهروه كالبشر من ولادة ، أو موت ، أو طعامٍ ، أو نكاحٍ ، ما هو إلاّ من قبيل التّمثيل ، ليطمئنّ البشر لهم فيأخذوا التّعاليم عنهم ، ويكونون لهم قدوة في امتثال أوامر الله ، واجتناب نواهيه . وعندها يهلك من يهلك عن بيّنة ، ويحيَ من يحيا عن بيّنة . وهم بهذه العقيدة يطيعون الأنبياء طاعةً لا مثيل لها ، لا يردّون عليهم فيما يقولون ، ولا يتردّدون في امتثال ما يأمرون به ، والانتهاء عمَّا ينهون عنه فطاعتهم من طاعة الله ، ومخالفتهم مخالفة لله . . فهم الميزان الذي يَزِنُون به البشر ممّن صاحبوا الرّسل ، أو

التّابعين لهم إلى يوم الدّين . فمن التزم بتعاليم الرّسل ، وتمسّك بنهجهم ، وترجم ذلك عملاً وسلوكاً ، لا يرهبه غلظة قلوب جبابرة بني البشر ، ولا تميل بهم مغريات الحياة الدنيا بما فيها من لذائذ وشهوات ولا يُغَرُّ بما تعده الحياة الدنيا من العزّ والجاه ، كان من المؤمنين عندهم ، وله حصانة من ربِّ العالمين وكرامة ، يتميّز بها عن بقيّة من كرّم من بني آدم . أمّا من يقع فيما لا تحمد عقباه نتيجة الخوف من غلظة قلوب الجبابرة من بني البشر ، أو بسببِ المغريات الدّنيوية ، فهو عندهم ممن يحتاج إلى رحمة الله وعفوه وغفرانه . .

أمّا من كان من الجبابرة الظّالمين لبني البشر ، وممن عملوا على إلحاق الأذى بالأنبياء ، أو المؤمنين الذين آمنوا بهم ، وقاموا على قتلهم ، وعمدوا مخالفتهم ، ومحاربتهم ، رغم المعاجز التي أتى بها الأنبياء ، أوالكرامات التي كانت تظهر على أيدي الأولياء . فإنّ أمثال هؤلاء عندهم أشرار قد خابت مساعيهم في الحياة الدّنيا ، ولحق بهم العار والمذلّة بما ارتكبته أيديهم ، واعتمدته قلوبهم . ومصيرهم النّار خالدين فيها وبئس القرار .

ولا أكتم القارئ الكريم أنّني تتبّعتُ وجهات النّظر هذه عند أصحابها فيما وقع بين يديّ من الكتب أثناء وجودي في النّجف الأشرف حيث المكاتب العامّة الكبيرة كمكتبة أمير المؤمنين (ع) التي كان يشرف عليها العلاّمة الكبير مؤلّف كتاب الغدير الشّيخ محسن الأميني رحمة

الله عليه . وإنّي لأسجّل له الفضل في إرشادي إلى بعض المصادر في هذا الشّأن وشاكرٌ له ما كان يقوم به من توجيهٍ وتصحيح لبعض وجهات النّظر فيما كنتُ أتوصّل إليه رغم حالته المرضيّة الّتي ألمّت به وقت ذاك ومكتبة النّجف العامة ، وبعض المكاتب الخاصّة كمكتبة العلاّمة الجزائري الذي كان لي الشّرف في استضافته لي في مدرسته أوّل وصولي النّجف عام سبعٍ وستين وتسعمائة وألف 00 ولن أنسى أهمّية ملاحظات آية الله العلاّمة المجتهد السّيد محمد مهدي الشّيرازي في كربلاء المقدّسة أثناء زياراتي له بهدفِ الإجابة على مجموعة من الأسئلة . . وإنّي لأقدّر رحابة صدره ، واستيعابه لمسائلي العديدة له ، إذ كان ينحو في سلوكياته التّرفُّع فوق الخلافات ، والنّزاعات المحليّة الخاصّة والإسلامية بشكل عام . وبتوجيهاته كنتُ استمدُّ الصَّبر على ما كنَّا نواجهه من مشاقّ ومتاعب .

وقفةٌ وتقويم

لقد وجدتُ أثناء تتبّعي لوجهات النّظر تلك أنَّ أصحاب وجهة النّظر الأولى كأصحاب وجهات النّظر الثّانية ، متشدّدون في أحكامهم على من يخالفهم الرأي ، وقد يصل بهم الأمر إلى إخراجه من دائرة الإسلام ، أو الإيمان . . وكم بان لي أنّ كثيراً من المآسي قد وقعت بين المسلمين جرّاء ذلك الاعتقاد ، وعلى أنّه أصلٌ من أصول الدّين ومن يخالفهم فيه يحكم عليه بالكفر . على أنّه ناكرٌ لأصلٍ من أصول الدّين

الإسلامي 00 وإنّا لله وإنّا إليه راجعون . . أمّا من قالوا بوجهة النّظر الثّالثة فما وجدتُ عندهم هذا التّشدّد في الحكم ؛ إلا أنّهم اعتبروا أنفسهم في مقدّمة المسلمين والبقيّة من ورائهم ينشدون ما وصلوا إليه ، وهم في سبقهم يَسَعُونَ البقيّة ، ويتحمّلون تقصيرهم ، ويحضّونهم على اللحاق بهم ، وقد يعملون على تذكيرهم بكلام الله ورسوله ، والمؤمنين ، وهم بهذا حريصون على أن يأخذ المسلمون بما أخذوا به لتسود المحبّة والأخوّة . . ويبقى شعار (لا إكراه في الدّين) راية خفّاقة فوق رؤوس بني البشر . . وإلى يوم الدّين .

المسألة الثّالثة : المعاد وحقيقة الموت .

أخذتْ هذه المسألة وقتاً طويلاً في تتبّع مسالكها ، وكادت أن تطغى على مشاعري وسلوكياتي ، وحتّى صار لبّي معلّقاً بها ، وروحي رهن إشارتها .. انغمستُ بكلّيتي وبما لديّ من طاقات ومواهب ، وإمكانيات ، في لُجَجِ بحرها الواسع والعميق ، وكدتُ أتوه عن طُرُقِها ، أو أغرق في شواطئ بحرها المائج .. إلاَّ أنَّ تتبُّعي لكلام الله سبحانه ، والتزامي الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم قدوة حسنة ، وتمسُّكي بمفاهيم آل بيت النّبوّة ، ومنهجهم في توضيح وتبيين ما في الكتاب والسّنّة كان السّفينةَ التي ركبتها ، فأمنتُ الغرق والضلالة . والله سبحانه الموفّق للهداية ، والحمد لله الذي هدانا إلى هذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

ولا شكَّ أنّ الإذعان بوجود الصّانع الواحد يوجبه وجود الإنسان ، وما يحيط به من أرضٍ وسماوات ، وما بينهما من الكائنات ، بما ينطوي عليه جسم الإنسان ، وعَجيبُ صنع الأفلاك من نظامٍ دقيقٍ ، ونهجٍ قويم . لا بل يؤكده بديهية أنّ الموجود له واجدٌ ، وأنّ المصنوع غيرُ الصّانع . فاتّصال التدبير لو تدبّرت ، وتمام الصّنع لَمِنْ أوضَحِ الأدلة ، وألزم البراهين لمن له قلبٌ يعي ، وعقلٌ يرشد . . ولا شكَّ أنّه سبحانه ولطفاً منه بمخلوقاته أوجب على نفسه إرسال المبشّرين والمنذرين ؛ كي يعمل بنو البشر ما يقرّبهم إلى طاعة الخالق ، ويبعدهم عن معصيته فتنتظم لهم الحياة بما يرضيه ويسعدهم .

ولا ريب أنّ البشريّة سارت منذ الزمن البعيد ، منذ آدم الأوّل أبي البشر ، بين مصدّقٍ للأنبياء ، ومطيع لهم ، وآخذ بأحكامهم ، ومتعبّدٍ بأعماله وفق أحكامهم التي كان الأنبياء يعتبرونَ تبليغَها مهمّتهم المقدّسة ، وعملهم الدّؤوب ، وشغلَهم الشّاغل ، على أنّها وظيفتهم التي ظهروا من أجلها ، ووجدوا من أجل معرفتها 00 وبين آخرين أنكروا الرّسل ، وجحدوا رسولهم ، واعتبروا ذاك ما هو إلا ليحقق الرّسلُ المصالح الدنيوية التي يتمتعون بها 00 فقاموا بكلّ الوسائل الرهيبة وما يمكن أن يخطر على بال البشر من وسائل التّكذيب ، والرّدع للرسل ، وتتبعهم ومن ناصرهم ، وشايعهم ، ورغب في أن يسلك سلوكهم ؛ فكان القتل ، والظّلم ، والتعذيب ، والسجن ، وما أشبه مما ابتدعته عقولهم

المتحجّرة فـي الصّدّ والوقوف فـي وجه الأنبياء ، ومن صدّق بتعاليمهم 00 وكان من تعاليم الأنبياء والرسل تبشير المؤمنين بهم والمصدّقين بأنّ الحياة الآخرة هي خير وأبقى ، وفيها ينال المؤمن كل ما ترغب به النّفس ، ويعيشُ السعادةَ أبد الآبدين خالداً فـي جنان الخلد لا يعكّر صفوَ حياته معكِّر 00 وأنّ الحياة الدّنيا فانية زائلة ، ومتاعها موقّت ، ومصير أولئك المتمسّكين بها ، المكذّبين للرسل وتعاليم الإله العذابُ الشّديد ، وأنّهم سيكونون إلى جهنّم خالدين فيها وبئس القرار وبئس المصير 00

ومضتِ البشريّة بفئتيها ، تعلو رايةُ إحداها مرّةً والأخرى مرّةً ؛ فتشيد كلٌّ منها لنفسها البناء ، والحصن الذي يدفع ويردّ ما توصّلت إليه تلك من وسائل هجوميّة ودفاعيّة وفي كلِّ مجالات الحياة وسواء في حالة حربٍ كانت أم في حالة سلم .

وتتجلّى للجميع حقيقة ثابتة لا مناص منها ، ولا شك فيها ، ألا وهي حقيقة الموت الذي لا بدَّ منه لكلّ مخلوق ، ولا مفرّ منه 00 فكانَ النّزاعُ والخلافُ بينهما فيما هو ما بعد الموت هل هناك من حياةٍ أم لا 00 وكلّ اتخذ لنفسه ما ينسجم وسلوكياته في الحياة 00 إلاّ أنَّ من آمنَ بأنَّ بعد الموت حياة قد وقعوا في خلاف ، وحتّى بين أصحاب الدّيانة الواحدة .

وما أرغبُ التّحدّث عنه ينحصرُ فيما وقع بين من اعتبر أنّ بعد

الموت حياة من اختلا ف ، وما ترتّب على ذلك من مآسٍ وأخصُّ منهم المسلمين دون سواهم من أصحاب الدّيانات من بني البشر . وما كان عندهم من مفاهيم في الحشر ، والنّشر ، ولكلٍ مفاهيمُه الخاصّةُ به ، وعلى ضوئها تكون فتواه والتزامُه مع الآخرين . مع أنّه لا ريب في الإيمان بهما عند الجميع ، ولا شك يعتري أحدٌ بحقيقة حصولهما 00

فالبعض سار معتبراً أنّ الموت يشمل كلّ الموجودات ما عدا الله الدّائم الباقي . . وبمفاد أنّ الموت هو الفناء وفي الحشر تعاد الأجسام بعد موتها وتلاشيها من غير فرقٍ بين قريب المدّة والبعيد ، وعلى أنّ المعاد الجسمانيّ من ضرورات الدّين . . وأنّ الجنّة والنّار مخلوقان موجودان في السّماء ، وقد رآهما النبيّ الكريم حين المعراج 0 وأنّ النّار دار الهوان ودار الانتقام من أهل الكفر والعصيان ولا يخلد فيها إلاّ أهل الكفر والشّرك . وأمّاالمذنبين من أهل التّوحيد فإنّهم يخرجون منها بالرّحمة التي تدركهم ، وبالشّفاعة التي تنالهم . وعليه فإنَّ جميع المسلمين مشمولون برحمة الله ، وأنّهم في النّهاية سيدركون الجنّة . .

وأمّا البعض الآخر ، ومع أنَّهم وافقوا أولئك في معتقدهم هذا إلاَّ أنَّهم خالفوهم في أنّه لن تشمل رحمة الله إلاّ من يشفع له رسول الله وآل بيته الأطهار . . ونتيجة ذلك كان الخلاف وترتّب عليه صدورُ فتاوى التكفير والتَّفسيقِ لكثير من المسلمين ولغالبيّة بني البشر من أهل الكتاب ، فضلاً عن الباقين ممن ليسوا من أصحاب الكتب السّماوية

المعروفة ، وأدلة الجانبين فيما ذهبوا إليه مستمدٌّ ممَّا جاء في القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة ، وما ورد عن أهل البيت عليهم السّلام . وعلى رأسها قوله تعالى:(إنَّك ميّت وإنّهم ميّتون) وقوله جلّ شأنه : (كلّ نفسٍ ذائقة الموت) وقوله : (كلٌّ ما عليها فان ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام) وقوله : (إنّ الله يحي الموتى وإنّه على كلّ شيء قدير) وقوله : (يوم يخرجون من الأجداث سراعاً) وقوله : (الله يبدأ الخلق ثمّ يعيده ثمّ إليه يرجعون) وقوله : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربّي لتبعثنّ ثمّ لتنبّئنّ بما عملتم وذلك على الله يسير) وقوله (قل يحيها الذي أنشأها أوّل مرّة وهو بكلّ خلق عليم) وقوله (يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن) وقوله : (أفعيينا بالخلق الأوّل بل هم في لبسٍ من خلقٍ جديد) وقوله : (ويوم تقوم السّاعة يومئذٍ يتفرّقون فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات فهم في روضة يحبرون وأمّا الذين كفروا وكذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون) وقوله تعالى : (ويحي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون) .

رأيٌ آخر وقعتُ عليه

شاءتْ لي الظروف والأقدار وبتوفيقٍ من الله أنْ أطَّلِعَ على وجهة نظر أولئك الذين فهموا الإسلام وتعاليمه من خلال فهم الإمام علي ابن أبي طالب (ع) ممّا ينقلونه عنه من طرقهم الخاصّة والمعتمدة عندهم ،

وممّا عُرِفَ عنه ، ونُقِل من خطبٍ وحكمٍ وروايات وأقوال . . . وكان ذلك بعد عودتي من النّجف الأشرف ، وبعد حصولي على شهادة بكالوريوس في اللغة العربية والعلوم الإسلاميّة ، وبعد أن قد حصلتُ على درجة علميّة أهّلتني لحضور الخارج في الحوزة العلميّة عند المرجع الدّينيّ الأعلى زعيم الحوزة آية الله السّيد أبي القاسم الخوئي . وقد دام حضوري للخارج أكثر من سنة ، ولولا الظّروف السّياسيّة التي سادت العراق بشكل عام والنّجف بشكلٍ خاص ، ولولا موقف الحكّام العراقيين من سوريا بلدي الحبيب عام 1972 م لكان لي شأنٌ آخر في الدّراسة وطلب العلوم الإسلاميّة بمختلف أنواعها .

هذا وغيره دفع بي للتفرّغ قدر الاستطاعة للمطالعة والدّراسة والبحث رغم الظروف الصّعبة الّتي أحاطت بي ، والتي واجهتني من الأهل والجوار ورغم متاعب العمل التربوي الذي أقومُ به ، ومجاهدة السّياسيين الموجودين حيث كنتُ أتواجد ، والمشائخ الذين كنتُ ألتقي بهم ، ودعاة الدّين الذين لم يكن من شيء يهمّهم أكثر من مصلحتهم الدنيوية .

ومن ثمَّ اطِّلاعي على الفتنة التي وقعت بين متزعمي من يسمّون بالعلويين ، وما رضوا بتسميتهم بذلك إلاَّ لالتزامهم فهم الإمام عليّ عليه السَّلام للإسلام ، ونهجهم نهجه ولا أكتم بأنّ ذلك قد خدمني في تقصّي بعض الحقائق إذ انبرى بعضٌ من مؤيّدي كلّ طرفٍ بوضع الكتب الخاصّة بين يديّ لأكون على اطلاع على الواقع كما هو في الكتب

المعتبرة عندهم . ونتيجةً لذلك اطّلعتُ على وجهة نظرٍ جديدة في الموت والبعث والجنّة والنّار ، والتي تتلاقى مع الوجهة الإسلامية من خلال الخطوط العريضة وإليك أيُّها القارئ الكريم وجهة نظرهم :

إنَّهم يؤمنون بأنّ الموت حقّ ، ويشمل كلّ الموجودات ، لكن بمفاد أنّ الموت هو وفق إجابة الإمام الحسن بن علي (ع) عندما سئل عن الموت ، حيث قال : (هو التّصديق بما لا يكون ...) ويؤيدون هذا المفهوم بما يروى عن الإمام الحسن بن علي العسكري (ع) عن أبيه عن جدّه عن الصّادق (ع) أنه قال : (إنّ المؤمن إذا مات لم يكن ميتاً ، وإنّ الكافر هو الميت لأنّ الله عزّ وجلّ يقول :" يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحيّ ." وقد عنى بذلك المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن) . ويؤيدون هذا المعنى بقول الإمام علي أمير المؤمنين (ع) عندما قيل له صف لنا الموت ، (فقال : على الخبير سقطتم ، هو أحد أمور ثلاث : إمّا بشارة بنعيم الأبد ، وإمّا بشارة بعذاب الأبد ، وإمّا تخويفٌ وتهويلٌ ، وأمرٌ مبهم لا يدري من أيّ فِرَقٍ هو) . ويعتبرون قول سيّد الأنبياء محمد(ص)هو الحكم الفصل وسيّد الأقوال في هذا حيث قال صلّى الله عليه وآله وسلَّم : (إنّ الدّنيا سجن المؤمن ، وجنّة الكافر ، والموت جسر هؤلاء إلى جنّاتهم ، وجسر هؤلاء إلى جحيمهم) .

وعليه إنّ الموت كما فهموه ، انتقال من حياة إلى أخرى ومن دار

إلى دار ، معتمدين قول الرّسول الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم : (ما خلقتم للفناء بل خلقتم للبقاء ، وإنّما تنقلون من دار إلى دار) وأنَّ الإنسان خلق للأبد والارتقاء ، فلا يعدم بالموت ، بل يفرق بين روحه وجسده ، وينقل من دار إلى دار ، ولم يخلق للعدم والفناء ؛ لأنّ الواجب للابتداء هو المانع عن الانتهاء . قال تعالى : (أفعيينا بالخلق الأوّل بل هم في لبسٍ من خلق جديد) . وأنّ الموتَ هو المصفاة ، يصفّي المؤمنين من الذنوب ، ويصفّي الكافرين من الحسنات ، وعلى أنّ الزّمن الّذي يعيشه المخلوق يتراوح بين السّاعات ، والأيام والشّهور والسنين ، وكلّها غير كافية ليكون هذا الطّفل أو ذاك الشّاب ، أو ذاك الشّيخ المعمّر ؛ ليحكم عليه بالحياة أبد الآبدين في جنّات النّعيم أو العكس في نار الجحيم . ولا بدّ ليتحقّق العدل من تكرار الخلق وامتحانهم بما امتحن به غيرهم ، وفي مختلف الظروف الحياتية التي تحيط بهم . والمواد الامتحانية كثيرة ، ولا يعلمها إلاّ واضعها سبحانه ، وهي من علم الغيب الذي اختُصّ به ،وإن جرى تعليمُ بعضِها لبعضِ خاصَّته ونالوا بذلك الدّرجة الرّفيعة والمكانة العالية . وبذلك يتساوى بنو البشر في بيان الحجّة ، فيكفر من يكفر عن بيّنة ، ويؤمن من يؤمن عن بينة قال تعالى : (إنّه هو يُبدئ ويعيد وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعّالٌ لما يريد) [1]. وقوله جلَّ اسمه (أو لم يروا كيفَ

[1]. البروج / 13. 16 / . (2) سورة العنكبوت / 18. 20 / .

يبْدئ الله الخلق ثمَّ يعيده إنَّ ذلك على الله يسير قلْ سيروا في الأرضِ فانظروا كيفَ بدأَ الخلقَ ثمَّ الله يُنْشئ النَّشأةَ الآخرةَ إنَّ الله على كلِّ شيء قدير) (2) . وأوجدوا بهذا الفهم نظريّة جديدة ، قال بعض بنودها أحمد ابن طولون وبعض المسيحيين . وقد نُقِلَ بعض مفاهيمها عن حكماء مصر القديمة ، وعن بعض فلاسفة اليونان ، ويعتبر من أقرب ما كتب في هذه المسألة من مفهوم المسلمين العلويين ما كتبه الدّكتور رؤوف عبيد في كتابه الإنسان روح لا جسد . وفي هذا جاء قوله : (وبعد أنْ نجحتْ البحوثُ الدَّقيقة في إثبات أنَّ الموتَ بمعنى التَّلاشي خرافةٌ كبرى ، وأنَّه ليس من مجرَّد تغيّر منْ حالةٍ إلى أخرى ، مماثل لِبعضِ التَّغيُّرات التي تعرفها علوم الحياة ، بل حتَّى ظواهر المادّة الطَّاقة في الفيزياء الحديثة . وهو تغيّير حاسمٌ في مصير الإنسان لأنَّ منْ شأنه أنْ ينقلَ النَّفسَ منْ مستوىً منخفض إلى مستوىً آخر مرتفع منْ مستويات الوجود غير المحدود خاضعٌ لأسلوبٍ آخر أرقّ منْ من أساليب الحياة التي نعرفها وأرقى) [1] .

وبهذا المفهوم للموت تميّزوا عن المسلمين بفئتيهم ، بتمسّكهم بقوله تعالى : (بل هم في لبسٍ من خلق جديد) وعلى أنّ الإنسان إن مات قامت قيامته اعتماداً على قول رّسول الإنسانية محمد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم : (من مات فقد قامت قيامته) حيث يصفّى المؤمن من ذنوبه

---

[1] . الإنسان روح لا جسد ج1 ص / 18 / .

، والكافر من حسناته ؛ بمعنى قد عرف أعماله ، واطّلع على نتيجة ما امتحن به من مواد في العمر الذي قضاه ، وعلى ضوء هذا الامتحان ، يكرّر خلقه ، وفي ظروف جديدة صالحة للامتحان بمواد جديدة يقرّرها ربُّ العزّة ، وهكذا إلى أن يتمّ امتحان المرء بجميع المواد الامتحانية . وعندها يلقى النّتيجة النّهائية ، فيكون من أصحاب الجنّة ، أو من أهل النّار .. وعلى أنّ المعاد الجسمانيّ قائم في كلّ مرّة ، والأجسام متغيّرة تُبدّلها الرّوح حتْماً ، ومع كلّ موت أو قيامة ، وهي كالثّياب تبدّل وتتغيّر كلّما اقتضت الحاجة ، أو دعت الضّرورة . وفي النّهاية فربُّ العزّة قادر على أن يحي العظام وهي رميم ، ويوم القيامة الكبرى قادر على أن يعيد الأجسام بعد موتها ، وتلاشيها ، وإن استحالت عناصر في التراب ، أو كانت في حواصل الطير يعيدها إلى هيئتها الأولى كما بدأها أول مرّة ، ويحلّ فيها الأرواح حسبما كانت ، ويضمّها إليها بعد أن انفصلت وبانت . وكان الله بكلّ شيء عليم .. والمؤمن في كلّ خلْقٍ يلقى بشارةً بنعيم الأبد . أمّا الكافر فيتلقى بشارةً بعذاب الأبد .. وأمّا من لم يحصل على إحدى النتيجتين فتخويف وتهويل ، وأمر مبهم لا يدري من أي فرق هو .. وهذا ما أوضحه أمير المؤمنين عليه السَّلام بقوله عن الموت : (هو أحدُ أمورٍ ثلاث : إمَّا بشارةٌ بنعيم الأبد ، وإمَّا بِشارةٌ بعذاب الأبد ، وإمَّا تخويفٌ وتهويلٌ وأمرٌ مبهمٌ لا يدري من أيِّ فِرَقٍ هو) .

وهم بنظريّتهم هذه ، يعتبرون أن الموت حقّ ، وأنّ المعاد الجسماني ضرورة من ضرورات الدّين . وأنّ القيامة الكبرى شاملة للإنسان وما يحيط به من مخلوقات ، أو موجودات سواء كانت في الأرض ، أو في السّماء ، والكلّ خلق الله الواحد الأحد . قال تعالى : (له ما في السماوات والأرض) ، وقال عزَّ اسمه : (وما من شيء إلاّ ويسبّح بحمده) وقال : (يسبّح لله ما في السماوات والأرض) . والكلُّ من وجهةِ نظرهم في دائرة الموت والقيامة قائم ، وله شأن عند باريه ولا يعلم حقيقة ذلك وكيفيّته والحكمة منه إلاّ ربُّ السماوات والأرض ، أو مَنْ شاء تعريفه وتعليمه .

ولهم فيمن تُصفّى حسناتُه لارتكابهم الكبائر من شركٍ بالله ، وقتلٍ لعباده نظرة تتلخّص في انتقالهم من حياة بني البشر من الصّور الآدميّة إلى دائرة من هم دون البشر من المخلوقات ، ووفق الطّباع التي مارسوها في الحياة السّابقة وانسجامها مع شكل من أشكال الحيوانات ، أو العجماوات ، فتلبس قميصها ، وتسلك دورتها الحياتية ، ولله في ذلك شأن عظيم يتحقّق من خلاله عدله سبحانه ، وحكمته في دوام الكون وتوازنه ، قال تعالى (لا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم) . وقد اتَّخذوا ممَّا حدث لأصحاب السّبت والتي أشار إليها سبحانه وتعالى بقوله : (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السّبت فقلنا

لهم كونوا قردة خاسئين)[1] . وبما ورد عن الإمام علي (ع) مع اليهودي في السّوق الذي أورده صاحب كتاب عيون المعجزات وقد أسنده إلى الحارثِ بن عبدالله الهمداني رضي الله عنه قال (2) : (كنَّا مع أمير المؤمنين عليه السَّلام ذات يومٍ على باب الرَّحبة التي كان أمير المؤمنين (ع) ينزلها ، نتحدّثُ ، إذْ اجتاز بنا يهودي من الحيرة ومعه حوتان ، فناداهُ أمير المؤمنين (ع) ، وقال لليهودي : بِكمْ اشتريتَ أبويك من بني إسرائيل ؟ فصاح اليهوديُّ صيحةً عظيمةً ، وقال أمَا تسمعون كلام علي بن أبي طالب يذكرُ أنَّه يعلم الغيب ، وأنّي اشتريتُ أبي وأمّي من بني إسرائيل ، فاجتمع عليهِ خلقٌ كثير من النَّاس وقد سمعوا كلام علي بن أبي طالب (ع) وكلام اليهودي ، فكأنِّي أنظرُ إلى أمير المؤمنين (ع) وقد تكلَّم بكلامٍ لمْ أفهمْهُ ، وأقبل على أحد الحوتين ، وقال : أقسمتُ عليك أنْ تتكلَّمي ، منْ أنا ؟ ومنْ أنتِ ؟ فَنطقَتِ السَّمكة بِلسانٍ فصيح ، وقالتْ : أنتَ أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب . وقال : يافلان ، أنا أبوك فلان بن فلان متُّ في سنة كذا وكذا ، وخلَّفْتُ لك من المال كذا وكذا ، والعلامةُ في يدكَ كذا وكذا . وأقبل عليه السَّلام على الأخرى ، وقال لها : أقسمتُ عليك أنْ تتكلَّمي ، منْ أنا ؟ ومن أنتِ ؟ فَنَطقَتْ بِلسان فصيح ، وقالت : أنتَ أمير المؤمنين ، ثمَّ قالتْ : يافلان وأنا أمُّك فلانة بنتُ فلان ، متُّ في سنةِ كذا وكذا

---

[1] . سورة البقرة / 65/ . (2) كتاب عيون المعجزات ص (20) .

والعلامة في يدك كذا وكذا . فقال القوم : نشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمّداً رسول الله وأنَّك أمير المؤمنين حقّاً ، وعاد الحوتان إلى ما كانا عليهِ ، وآمنَ اليهوديُّ . .) .

الإنسان ودورتُه الحياتيّة

ما ورد في الكتب المعتبرة إسلامياً من تسبيح الحصى بيد النّبي (ص) ، وحنين الجذع إليه ، ونطق ذراع الخروف المشوي المسموم من قبل اليهودي ، وكلام الهدهد لسليمان ، وإخباره عن بلقيس الوارد في القرآن الكريم ، وكلام النّملة ... وغيرها كثير من الأحداث التي جرت على يد الرّسول الأكرم محمد (ص) وآل بيته الطّاهرين كحديث الجمجمة للإمام عليّ (ع) وما ورد عن الأئمَّة من أحاديث يحرّمون بها أكلَ بعض الحيوانات كالأرنب وغيرها لأنَّها من المسوخيَّات ، وما ذكر عن الإمام علي الهادي (ع) أنَّه قد نهى عن أكل بيض بعض الطّيور لأنَّه من الممسوخ . كلُّ ذلك تؤكّد صحَّة وجهةِ نظرهم وإنَّهم بسببِ عقيدتهم هذه يندفعونَ للتّمسّك بالإنسانية ، والتَّحلي بمبادئها السَّامية من أخوّة في البشريّة ، وحبٍّ لجميع مخلوقات الله ، ودعوةٍ إلى التَّعاون والمساواة ، وبغضّ النَّظر عن الجنس واللَّون والعقيدة . لأنّ المرء وفق نظرتهم للموت يسير في دورة كبيرة ، يتنقل فيها الإنسان من دار إلى دار ، ومن طائفة إلى طائفة ، ومن فرقة إلى أخرى ، ومن مجتمع أو أمّة إلى مجتمع أو أمّة غيرها . ويكون هذا وفق علم الله وإرادته ،

وبنظامٍ ودقّة وحكمة تنسجم مع نظام الكون البديع ، الذي لا خلل فيه والذي فيه من الأسرار العجيبة ، ما لا يحصى ولا يعدّ ، ولا يخطر على بال بشر .. وهم في اعتقادهم هذا يساوون بين أبناء البشر غير مفرّقين بين مسلم ومسلم إلاّ بالتقوى ، ولا بين مسلم ومسيحيّ أو غيرهما إلاّ من خلال ما يصدر عنهم من أعمالٍ ترضي الله سبحانه ، وتحقّق إنسانية الإنسان . . .

وإنّ المجرم عندهم هوَ مَنْ تكن أعماله من أعمال الشّيطان وكيفما كانَ انتماؤه المذهبي أو الديني ، أو الجنسي ، أو القومي وسواء كان حاكماً ، أو محكوماً ، وبغضّ النّظر عن العمل الذي يقوم به لتنتظم له الحياة المعاشيّة تاجراً أم مزارعاً أم جنديّاً أم غير ذلك .

الفرقة النَّاجية

وهم في هذه العقيدة ، يرفضون حديث الفرقة النّاجية بالمفهوم السائد عند أصحاب الأديان السّماوية ، والذي أشار إلى بطلانه ربُّ العزّة بقوله جل شأنه : (قالوا لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بل من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربّه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقالت اليهود ليست النّصارى على شيء وقالت النّصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله

يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا يختلفون)[1] . وقوله تبارك وتعالى : (فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره) (2) . مؤكّدين على أنَّ الفرقة النَّاجية يُعْنى بها كلّ فردٍ آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من المسلمين والنَّصارى واليهود والصَّابئين ، وحجَّتهم في ذلك قوله تعالى : (إنَّ الَّذين آمنوا والَّذين هادوا والصَّابئون والنَّصارى منْ آمنَ بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) (3) وقوله سبحانه : (إنَّ الَّذين أمنوا والَّذين هادوا والنَّصارى والصَّابئين من آمنَ بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهمْ أجرهم عند ربّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) (4) .

وأنّهم يتعمّقون في فهم قوله تعالى : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدّنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب) (5) . وبهذا المفهوم يتوصّلون إلى المعنى الحقيقي لقول الرّسول الكريم (ص) : (الدّنيا جنّة الكافر .. والموت جسرُه إليه) . وأنّ الجنّة يبدأ المؤمن باستشعارها ومنذ هبط ابن آدم الأرض مروراً بالدّور والأقوام التي وجد فيها في دار الامتحان والابتلاء ومنذ أوّل تصفيّة له من ذنوبه ، وإلى آخر عهد له في الحياة الدّنيا بالفوز والنّجاح بجنان الخلد التي هي مقرّه ومستقرّه في النّهاية على أنّها الوعد

---

[1] . سورة البقرة /113.111 / . (2) الزّلزلة / 8 / . (2) سورة المائدة /69 / . (4) البقرة / 62/ (5). الشُّورى /20/ .

الذي وعد به ربّ العزّة المتّقين المطيعين لأمره ، والممتثلين لأحكامه ، والمتجنّبين لنواهيه على أنّه أهلٌ للطّاعة والعبادة لا طمعاً بجنّة ولا خوفاً من جحيم . وهكذا الحال بالنسبة للكافر يتلمّس ويتحسّس لهيب النّار وشواظّها منذ وجد على الأرض وصفّيَ من حسناته مع أوّل قيامة له مع أوّل انتقال له من دار إلى أخرى أو من قوم إلى آخرين وإلى آخر عهد له بالحسنات والأعمال الصّالحة فلا يبقى منه إلاّ ما هو حطب لجهنّم ، وإلى أن تقوم السّاعة ويحشر النّاس ، وينشرون بين يدي عزيز مقتدر ؛ فيدخل هؤلاء جهنّم وبئس القرار ، ولا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلاّ حميماً وغسّاقاً ، وقد ذاقوا آلام السّلاسل والأغلال ، تغشي وجوههم الظّلمة والسّواد والكآبة . أمّا الذين آمنوا فلهم جنّات النّعيم تعرف في وجوههم بهجة التّنعّم ونوره يسقون من رحيق مختوم ، مزاجه من تسنيم ، ووجوههم منيرة ضاحكة مستبشرة بنعيم الأبد ، قال تعالى : (إنّ الأبرار لفي نعيم وإنّ الفجار لفي جحيم يصلونها يوم الدين وما هم عنها بغائبين) [1] .

---

[1] . سورة الانفطار / 13 . 16 / .

بسم الله الرحمن الرحيم

طَلَبَ منّي أن أكتب عن سلبيات بيئتنا الاجتماعية منها والدّينية ، وألحّ في ذلك ، وكنت عندها في سنة التخرّج ؛ وشاء الله أن تكون إجابتي له وقتها : (إنّ لكلّ شعبٍ أو جماعة سلبيات وإيجابيات ، وحريٌّ بي وأنا في هذه المرحلة ، حيث شاء الله أن أكون مدافعاً عمّن أنتمي إليهم ، وقد اتهموا بكثير ممّا ليس فيهم أو عندهم ، وما كان ذلك إلاّ نتيجة الظروف التي مرّ بها المسلمون ، وبسبب العداء الذي أوجدته

الحروب الطائفية البغيضة ، والخلافات الدّينية المقيتة . . وحريٌّ بي وأنا في هذا الظرف أن أتستّر على عيوب من أنتمي إليهم ، وأسعى متنقلاً في القرى والمدن لأرشد وأنصح وأبيّن العيوب والسلبيات اللاّتي نتّهم بها ، وعلينا التخلُّص منها ومحاربتها إن وجدت بين ظهرانيهم ... وذكرت له وصيّة أستاذي العلاّمة السيّد جمال الدين نجل المرجع الدّيني الأعلى السيد أبي القاسم الخوئي حيث كان في كلّ مرّة أغادر النّجف يزوّدني بنصائحه ، ويتحفني بقوله : أستر ما رأيته منّا ، فقد أمرنا بالتّستر على عيوب إخواننا .

ومن ثمّ قلت له : إنّ العيوب والسلبيات التي تشير إليها موجودة في كلّ وسط إسلاميّ ، وبين مختلف المذاهب ، وأنّه علينا إن أردنا الإصلاح أن ننهج سلوكيّة آل البيت عليهم السّلام ، وأن نبدأ بإصلاح أنفسنا ، ونعمل بما نعتقده إيجابياً ومفيداً ، وفي رضا الله ، ونتجنّب ما نراه سلبياً ويغضب الله . وعندها سنتمكّن من المساهمة في التَّغيّير ، ونقدر على التّخلّص من كثير ممّا علينا رفضه أو تغييره ، ونكون قد قمنا بواجب إرشاد الآخرين على تركه ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، أو على أقلِّ تقدير نكون قد ألْفتنا النَّظر إلى ما فيه مخالفة لتعاليم السّماء .

وأخذ الحديث متناولاً سلبيةً كانت تشغل باله ، ويرى فيها ما يقتل ، وقام بعرضها ودراستها مشيراً إلى أسباب وجودها فبينتُ له أنّها موجودة

في كلِّ المجتمعات الإسلامية ، لا بل يوجد ما هو أسوأ منها ، وألقينا المسؤولية على عاتق القائمين بزمام أمور الإسلام في أرجاء العالم . وعدنا إلى ما يلقيه الواجب علينا اتجاه من ننتمي إليهم ، على أنّ الآخرين لديهم من يهتمّ بشؤونهم ، وكنّا في غالب الأحيان أمام وجهتي نظر ، وفي كلٍّ منهما إدانة للسّلبيّة التي تعرّض إليها ، غير أنّه كان يريد الكتابة في ذلك ، وفضح القائمين بمثل تلك الأفعال المنافية للدّين ، وخالفته الرأي حيث تبنّيتُ نصيحة أستاذي التي أشرتُ إليها ، بعد أن بيّنتُ له أنّه علينا أن نعمل ضمن شعبنا ، ونسعى لِّلقاء مع القائمين على قيادة شعبنا لإيجاد صيغة نعمل وفقها ، وأكَّدْتُ على القيامِ بواجبِ التّوعية والإرشاد والنّصح لأبناء شعبنا ، وعلى أن تكون دعوتنا بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ كأن نلفت الأنظار إلى ما يترتب على وجود تلك السّلبيات من أضرارٍ دنيوية وأخروية ، وإلى ما فيها من مخالفة لتعاليم السماء .

وفي أحد اللقاءات ، طرح أهميّة المحافظة على الصّلاة في ظهراني قرى جبلنا الحبيب ، متبنياً أنّه لا يمكن أن نكون جعفريين أو علويين ما دام أبناء الرّيف مقصّرين في إقامة الصّلاة ، وأخذ الحديث منّا وقتاً طويلاً تعرّضنا به إلى الأسباب العديدة التي كان لها دور في تقصير أبناء شعبنا في الرّيف وعدم التزامهم بالعبادات كأبناء المدن ، وتشعّب الحديث حتّى اضطررنا أن نراجع التّاريخ وسيرة الكثير من المسلمين ،

وفي أثناء ذلك عرضتُ وجهة نظر لم تلق منه الرِّضا ، مفادها : نتيجة اطلاعي وتتبعي لتاريخ الإسلام أثناء دراستي الجامعيّة في النّجف الأشرف ، وجدتُ طريقين سُلِكا من قبل المسلمين ، الأوّل : سلوكيّة الرّسول الأعظم محمد (ص) وآل بيته الغرّ الميامين ، وقد سار على هذا الطريق ، وتبنّى نهجه الكثير من المسلمين ومن مختلف المذاهب الإسلامية . وكان سندهم في ذلك قوله سبحانه وتعالى : (لا إكراه في الدّين) ، وقوله جلَّ شأنه : (لستَ عليهم بمسيطر) ، وقوله : (وذكّر إنّ الذكرى تنفع المؤمنين) ، وقوله : (وأمر أهلك بالصّلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتّقوى) . وفي القرآن الكريم ما يدلّ على أن هذا النّهج هو السنّة الإلهية المرتضاة للخلق ، وقد سار عليه جميع الرّسل وفي مقدّمتهم نبيّنا الكريم محمَّد صلَّى الله عليهِ وآلهِ وسلَّم ، حيثُ كانتْ دعوته إلى ربّه بالحكمة والموعظة الحسنى ، وكان بذلك الأسوة الحسنة . وحريّ بنا أن نقتدي به ، وبآل بيته الأطهار ومن تبعهم بإحسان ، وما رأينا ولا سمعنا عنه ، ولا عنهم ، أنّهم دعوا النّاس إلى الصّلاة وبأيديهم صولجان يرفعونه ، أو سوط يضربون النّاس به . لابل عرفنا أنّه كان يتقدّم النّاس ويصلّي أمامهم ويعلّم من هداه الله إلى الإسلام ما أمِر به من صلاة وغيرها ، وتأتيه الوفود ، ويطلبون منه أن يزيدهم علماً ليكونوا عند حسن ظنّ الله تعالى بهم ، ويزداد عدد المؤمنين والمصلّين ، وتنزل الآيات لتنقّر

أولئك المصلّين الذين هم في صلاتهم ساهون قال تعالى : (ويلٌ للمصلّين الذين هم في صلاتهم ساهون) . وها هما سيّدا شباب أهل الجنّة الحسن والحسين عليهما السلام يلتقيان حول بئر ماء بأعرابي يتوضّأ ، وما كان يحسن وضوءه ، فينظر الحسن إلى الحسين . روحي لهما الفدى . ويتقدّمان نحو الأعرابي ، ويلقيان عليه السلام ، ويطلب الإمام الحسن(ع) منه أن يقبل أن يكون حكماً بينهما ، فهما مختلفان في أمر كلٌّ منهما يدّعي أنّه الأفضل فيه ، وقبل الإعرابي عرضهما ، فقال الإمام الحسن(ع) : هذا أخي وهو يدّعي أنّ وضوءه أحسن وأفضل من وضوئي ، وأنا أدّعي العكس ، وقد قبلنا بك حكماً بيننا ، وقام الإمام الحسن وسبغ وضوءه أمامه وعلى أتمّ وأكمل وجه ، وضوء جدّه رسول الله (ص) . ومن ثمّ تقدّم الإمام الحسين (ع) وسبغ وضوءه ، وكانا بذلك قد قاما بسبغ الوضوء الصحيح أمام الإعرابي مرّتين ، فأدرك الإعرابي مبتغياهما ، فقام بسبغِ الوضوء أمامهما ، وشكرهما على أسلوبهما معه .

هكذا هي سلوكيّة أهل الإيمان ممن لا يريد من نشر تعاليم الله إلاّ مرضاة الله ... وعلى هذه المسيرة سار الكثير من المؤمنين في نشر دين الله ومن مختلف المذاهب ، وفي التّاريخ شواهد كثيرة على مثل هؤلاء الذين سلكوا هذا السلوك ، وبسلوكهم هذا انتشر الدين الإسلامي في الأوساط رغم أنف الحكام والمتسلّطين والمدّعين .

أما النّهج الآخر ، أو الطريق الثّاني : فقد سلكه بعض المسلمين ظنّاً منهم أنّهم في ذلك يصلحون إذ حملوا الصولجان والسوط ، والدّرة ، ورفعوها في وجوه العباد ليزيدوا عدد المصلين ، ولتكثر مظاهر الإسلام ، وتزدان البلاد بها حيثما تُولّى الوجوه وفي زعمهم أنّهم خدموا الإسلام ، ونصروا الله ورسوله ، واتخذوا من ذلك مقياس الإيمان والطاعة للملك الديّان . وكان في المسلمين من سلك هذا النّهج ومن مختلف المذاهب ، ولكلّ طريقته في الحضّ على الدين واعتماد بعض المظاهر الإسلامية التي دعا إليها وتمسّك بها .. وإلى أن وصل الأمر بالبعض إلى تكفير الآخرين ؛ ونتيجة ذلك ظهرت الفتن ، والفتاوى الظالمة ، وصدّقت الأحكام الجائرة ، وطبّقت حدود وتعزيرات وفق الهوى ، ومخالفة لشرع النبي المصطفى محمد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم . ولك أخي من التاريخ الكثير الكثير فيما إن أردت أن تتحقّق وتستبصر .

ونحن أيّها الأخ الكريم في هذا العصر ، حريٌّ بنا أن نقتدي بالرسول الكريم (ص) وندعو إلى ربّنا بالحكمة والموعظة الحسنى ، ونكون ممن يطبّق ويلتزم بما يدعو إليه ، وعندها سيكون لنا شأن وأيّ شأن ، قال تعالى : (إن تنصروا الله فلا غالب لكم) .

ولا أخفيك أيها الأخ الكريم ، أنّني قد لمستُ التّقصير الذي أشرت إليه عند جميع أبناء المذاهب الإسلامية سنّة وشيعة ، وفي مختلف البلدان التي زرتها ، سواء في العراق أو الكويت أو البحرين أو لبنان ،

أو سوريا . كما أنّه كذلك في الدول الإسلامية الأخرى مما لم تساعدني الظروف للهجرة إليها ، وقد تأكدتُ من ذلك ممن كانوا يدرسون معنا في النجف الأشرف ومن مختلف البلاد الإسلامية من إيران ، وأفغانستان وباكستان ، والهند ، ومصر ، أو ممن كنا نلتقي بهم في المؤتمرات الإسلامية ، أو الندوات التي كانت تقام في النّجف الأشرف وكربلاء المقدسة ... ناهيك عمّا كانت تدوّنه الصحف والجرائد ، والمجلاّت في هذا الصدد ، وتحميل المسؤولية لأولئك الذين يقومون بأعباء الإسلام سواء الصادرة منها في الدّيار المصرية ، أم الحجازية ، أم التونسية أو المغربية ، أو الأردنية .. فإن كنت ياأخي ممن يريد نشر الإسلام كما أتى به نبيّنا وسيّدنا محمد (ص) ، عليك أن تنهج نهجه ، وتصبر ، فإنّ الله مع الصابرين ، وإلاّ فلك ملء الحرية أن تنهج الذي تريد ، ولك عند ربّك موقف ، أرجو ألاّ تنساه وإنه لآت إن شاء الله كما تراني وأراك ... وما أن وصل حديثي معه إلى هذا حتى استشاط غضباً ، وبزعمه ، لله غضبَ ، ومن ثمّ ارتفع صوته ، محاولاً إظهار أن الحقّ معه ، على أنّ فهم الدين ونشره ، ليس هو حكر على دارسيّ الدين في هذه الأيام بل هو لكلّ العارفين المستبصرين وأشار إلي قائلاً : وإن كنت من المتعممين الدّارسين ، فهناك من يفهم الدّين ، وتهمّه قضاياه ويرون أنفسهم موضع تحمّل المسؤولية اتجاه الله ورسوله والمؤمنين ... وقاطعته متعوّذاً من الشيطان الرجيم ..أعوذ بالله من أن

أدّعي أنّ الدين حكرٌ على دارسي العلوم الشرعيّة في هذه الأيام ، أو أن أنفي المعرفة والاستبصار عند غيرهم ، بل أؤكد لك مدى إيماني بقوله تعالى : (إنّما المؤمنون أخوة) ، وأنّ حديثي السابق بغالبيّته يتناول أولئك المدّعين للعلم ، والمعممين بعمائمه ، فلا تتسرع ولا تغضب ، وأرجعك إلى التاريخ لتقرأ أحكام وفتاوى أولئك المدّعين العلم والمتحملين المسؤولية الدينية ؛ لتدرك أنّ الأغلب ممن عرفوا في التاريخ بالعلم والتقوى والسياسة كانوا من أولئك الذين اتبعوا الطريق الثاني الذي ذكرته حيث رفعوا السوط قي وجه العباد وأجبروهم على القيام بالشعائر الدينية ، ومن نتاجهم كانت تلك الفتاوى الظالمة ، وبعض الأحكام الجائرة بحقّ بعض المسلمين ومع هذا ما لنا ومن مضى ، فنحن الآن في ظروف جديدة ، وزمام الأمور ليست بأيدي المعممين ، أو رجال الدين كما يسمّون في هذه الأيام ، والأعداء كثر ، والخصوم عنيدون ، ولديهم تحصينات استقوها من الحضارة الجديدة ، والمعارف العصرية المدعّمة بنتائج العلوم الماديّة .

وبان الجفاء بيني وبينه عندما قام بطرح مسألة الخمر المتفشِّية في العالم الإسلامي بشكلٍ عام وفي مجتمعنا بشكلٍ خاصّ للنقاش والدراسة والمعالجة ، بما لها من أخطار ، وما يترتب عليها من مساوئ ، وقبائح ، ومفاسد قد توصل بالمجتمع الإسلامي إلى التفكك ، والانهيار . ومع أنّني أقررت معه بأنّ الصحابة كانوا في زمن الرسول محمد (ص)

يشربون وأنّ تعاليم السماء نزلت بالتدريج لإبعاد المسلمين عن الخمر وإلى أن جاء التشديد عليهم بتحريمها . وأنّ هناك من الصحابة من أقيم عليهم الحدّ زمن الخلفاء الراشدين لارتكابهم جرم شربها ، إلاّ أنّني تحفّظتُ مِنْ َلْعنِ شاربها ، أو الحكم عليه بالكفر أو الزندقة كما درج عليه بعض علماء المسلمين ، ومن مختلف المذاهب سنّة وشيعة . وأنّه إذا تمسّكنا بذلك نحكم على جمّ غفير من المسلمين الأوائل أيام الراشدين ، وبني أميّة ، وبني العباس ، ناهيك عن العصور المتتالية وحتى أيّامنا هذه ، مروراً بمن كان خليفة للمسلمين كيزيد ، وقادة جيش كسعد ، وعلماء وأدباء ، وشعراء كان لهم كبير شأن عند المسلمين .. عندها احمرّت عيناه وما كاد يكبت غضبه حتى قال : أتكذب رسول الله وقرأ الحديث الذي لعن رسول الله فيه شارب الخمر وحاملها .... فقلت له : حاشا لرسول الله من الكذب ، وإنّي لأعوذ بالله من أن أردّ له قولاً. ولكن ألا ترى معي أن هذا الحديث لم يكن من الأحاديث السبعة التي لم يجد الإمام ابن حنبل غيرها صحيحاً مما وصل إليه . ثمّ ألم تر أنّ من شربها في زمن رسول الله الأكرم قد اعتبره الرسول مسلماً إذ قام عليه الحدّ ، وقد كان من أولاد بعضِ الخلفاء من أقيم عليه الحدّ وكثيرٌ ممَّنْ كان مقرّباً منهم ، ومنْ ذوي المسؤولية ، وصاحب كلمة ومشورة ، وأمره مطاع ، وقد نال بعضهم الشهادة في ساح الجهاد ، وما كان منْ أحد أن يجرأ فيشير إليه بالكفر ، أو اللعن ، أو الزندقة ، أوغيرها ...

وإنّـي لأعتبـر سيرة الرسول الأعظـم هـي المرجـع فـي مثـل هـذا الأمـر .
وإن كان هناك من يجب أن يقام عليه الحدّ في هذه الأيام ، فإنّي أرى أن يسْنَدَ مثل هذا الأمر لمن هم عاملين في سلكِ القضاء ووفقَ القوانين التـي تعتمـدها الدّولـة ، وهـذا لـيسَ مـن شـأني ولا مـنِ شـأنك ، وحسـابُ أولئك علـى الله . ومـن يتـوب منـهم ، ويعمـل الصـالحات فقد ينـال بـذلك رفيع الدّرجات .

وإنِّــي أرى بــأنَّ هــذه المســألة خطيــرة ، وهــي مــن أخطــر القضــايا الاجتماعيّـة فـي هـذا العصـر ، ولـذلك علينـا للقيـام بمعالجتهـا فـي هـذهِ الأيَّـام ، أن نكـون أكثـر حكمـة ممَّـن سـبقنا ، ونسـتفيد مـن أسـلوب ربّنِـا الحكيم الَّذي سار تدريجيَّاً وإلـى أنْ وصـلَ إلـى تحريمهـا . ولنفتـرض أنّ أحدهم قال لـك : مـا قولـك فيمن يتمسّك بقولـه تعـالى : (فيـه منـافع) ، وأنّـه يبحـث عـن المنـافع التـي فيـه والتـي صـرّح بهـا ربّ العـزة ، وأنّـه يستعمله فـي مجالاتهـا شـفّة مـن شـراب ، أو ملعقـة للتطهيـر ، أو غيـر ذلـك ممـا توصّـل إليـه العلـم .. وأقرّه سبحانه بقولـه : (فيـه منـافع) وأنّ الأضرار التي أشار إليها القرآن الكريم لهي مقيّدة في استخدامه كشراب يوصل صاحبه إلـى السكر والعربدة ، وهذا مـا أشـار إليـه جلّ شأنه فـي قوله : (يوقـع بينكم العداوة والبغضـاء) ... وينفر الرجل من حديثي ، ويرفع صوته قائلاً : هذا ما تعلمته من النجف الأشرف ؟ أهذا هو الذي درسـته ؟ وأفنيـت مـن عمـرك سـنيناً لتأتينـا بهـذه النتيجـة المخالفـة لكـلّ

علماء الإسلام بمختلف مذاهبهم .. فقلت لـه : تريّث يا رجل ، فالنّجف بعلمائها ومراجعها أكثر منك تشدّداً في هذه المسألة ، لا بل يعتبرون الخمر نجساً ، ومن النّجاسات التي لابدّ للمسلم من أن يطهّر جسده ، وثيابه منها كلّما أراد أن يقف بين يدي الله ، وأنّ الصّلاة تعتبر باطلة إن لم يكن جسد المصلّي وثيابه خالية من النّجاسات كلها .. وإنّني أوافقهم أحكامهم هذه . وما أبديته لك هو تحفّظي من اللعن والتكفير والزندقة لشارب الخمر ، أو مستخدمه لأغراض صحية أو غيرها .. وإنّني لأرى في الرواية التي يرويها صاحب كتاب التمحيص فيمن أراد أن ينال من شيعة الإمام الصادق (ع) باتهام بعضهم بشرب النّبيذ وقول الإمام له مسكتاً ما يشفي الغليل ، وإليك نصُّ قوله : (اخبرني أبي عن جدّي عن جابر بن عبد الله الأنصاري ، أنّ أصحاب النّبي (ص) كانوا يشربون النّبيذ ، فقال الرجل : ليس أعني النبيذ ، وإنّما أعني المسكر . قال : شيعتنا أزكى ، وأطهر من أن يجري الشيطان في أمعائهم رسيساً ، وإن فعل ذلك المخذول منهم ؛ فيجد ربّاً رؤوفاً ، ونبياً بالاستغفار له عطوفاً ، ووليّاً عند الحوض ألوفاً ،وتكون أنت وأصحابك في برهوت عكوفاً . قال : فأفحم الرجل وسكت ، ثمّ قال : ليس أعني المسكر إنّما أعني الخمر . فقال أبو عبد الله (ع) : سلبك الله لسانك ، ما لك تؤذينا في شيعتنا هذا اليوم) انتهى قوله(ع) .

وإني أيّها الأخ لأرى في هذا الحديث الفحوى الذي أرمي إليه وما

ألزِمكَ به أنتَ ولا غيرك من المسلمين ، وأنا في هذا أحتاط ؛ لأنَّني ممَّنْ يعتقد بأنَّه قد يشرب البعض من المسلمين المسكر ممن خذلهم الشيطان فيجدون ربّاً رؤوفاً ، ونبياً بالاستغفار عطوفاً . وهذا هو نهج آل البيت عليهم السلام في الحضّ على الدّين والدّعوة إلى التمسّك بتعاليم الله بعين الرحمة التي أرسل بها رسول الرحمة محمد (ص) وهو المبعوث رحمة للعالمين .. وإليك حديث آخر أضعه بين يديك علّ فيه ما يخفّف عنك ، وتكون أكثر تعقلاً ، ومع هذا فلك أن تسلك الطريق الذي تريد ، وعندها ستكون المسؤول عن موقفك ، وما يترتب عليه من أقوال وأفعال ، ولن يخفى على الله من شيء ، وهو الغفور الرحيم (ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا للإيمان) . ناهيك أيها الأخ أنّ الظرف الذي بعث به نبيّنا العربي محمد (ص) ، كان النّاس فيه متشبّعون بالخمر ، وغيره من العادات السيئة ، والتي لم يصل إليها بعد مجتمعنا ، أو إلى مشا كلتها ، ومع هذا فالرسول الأكرم (ص) ، اتّبع النّهج الإلهي الذي أمر به ، لم يحمل سيفاً في وجه أولئك إلاّ دفاعاً ، وما أكره أحداً على اتباع تعاليمه ؛ بل دعا إلى ربّه بالحكمة والموعظة ، فآلَّفَتْ دعوتُه بين القلوب ، وجعلتهم إخواناً بعد بغضاء ونفور ، وجمع العرب ، ووحّد كلمتهم بعد أن كانوا عشائر متفرّقين ، وأسقط كلّ ما هو جاهليّ مخالف لتعاليم السّماء ، وبروح المحبّة ، والتسامح ، وتطبيق العدالة ، والمساواة ، لم يكن يفرق عنده زيد عن عمر ، إلاّ بالتقوى ،

والعمل الصالح . . . وما أحوجنا أيها الأخ المسلم أينما كنت وكنّا إلى أن نرجع جميعاً إلى القرآن الكريم ، والسنّة النّبويّة الصحيحة ، في نشر ، وتبليغ الدّعوة الإسلامية ، وعلى أن يكون نهج الرسول الأعظم نهجنا ، والطريق الذي اتبعه أهل بيته ، وغيرهم من المؤمنين الصّادقين ، الذين لا يرجون في الدنيا علّواً إلاّ بالحقّ ، ولا يبغون جزاءاً ولا شكورا طريقنا الذي نسلكه في دعوتنا ، وتعاملنا مع بعضنا ؛ فنكون رحماء فيما بيننا . قال تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً) [1] .

دارت الأيّام ، وشاءت الأقدار اللقاء في ظرف اشتدّ غضب عصابة الإخوان المسلمين في سوريا ، وبان حقدهم على الفئة التي أنتمي إليها . وتكشّفت الأيام عن مدى جهلهم للإسلام دين الحقّ ، والرحمة ، والإنسانية ، ومسيرتهم مع أهوائهم ، ورغباتهم الدنيوية . حيث أظهروا عبوديّتهم للكرسيّ ، والشيطان ؛ فقتلوا الأبرياء منْ أئمّةٍ للمساجد ، وأطبَّاء ، ومحامين ، وأطفال مدارس ، وقاموا بنهب ملك الشعب ، وأفسدوا في الأرض ، وقطّعوا الطرق مبرّرين تصرّفاتهم بأنّ الوسيلة تبرّرها الغاية ؛ وأيّة غاية ؟ إنّها غاية الوصول إلى الحكم وبوصولهم يبعدون الإسلام عن الحياة العملية ، والسقوط في مهاوي التّمزّق ، والفرقة . فيسهّلون الطريق أمام أعداء الإسلام ممن يتربّصون لنا الطرق

---

[1] . سورة الفتح / 29 / .

من يهود ، وماسونيين ، وصهاينة عالميين ، ومن يشدّ أزرهم ، وبذلك الكارثة الكبرى لو كانوا يعقلون .. (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) ... ويقع كتاب (عاداتنا وتقاليدنا) التي وصم به مؤلفه أبناء شعبنا بكثير من العادات التي تخطّاها الزمن ، وأكل عليها وشرب ، وقع في أيدي السلطة وهم يفتّشون أوكار ، ومخابئ خوّان الإسلام . ويعترف أحدهم عن الغاية من وجود مثل هذا الكتاب بين أيديهم ، على أنّ فيه الدليل المقنع على ما عقدوا العزم عليه للنّيل ممن هم موضوع الكتاب ، وعلى أنّ فيه اعتراف من مؤلّف الكتاب وهو منهم ومن أعلامهم بأنّ عادات أولئك وتقاليدهم لا صلة لها بالإسلام وهو يحكم عليهم بالكفر .

وتشاء الأقدار أن أكلّف بمحادثته ، وانتزاع بيان منه ، أو تقرير واعتراف بنفي بعض ما في الكتاب مما يستشعر منه اتهام الطائفة بالكفر أو الخروج من الإسلام ، أو أنْ يكتب في الصُّحفِ أن ما أشار إليه من تقصير أو أفعال تخالف الإسلام في كتابهِ الآنف الذِّكر إنما هو موجود عند كلّ الطوائف الإسلامية ، وقد يوجد أبشع منها وأسوء . . ويتمّ اللقاء معه في المسجد ، وبعد تأدية صلاة المغرب حيثُ اتخذنا الزاوية الغربية منه وكانَ أنْ أحاط بنا جمع من المصلين ، وبدأ الحديث بالتّهكم والسخرية من أولئك الذين يمرون أمام الجامع ولا يدخلون إليه للصلاة ، وأراد منِّي أن أحمل معه عليهم .. ولا أنكر أنّني

عندها قابلت حماسه وسخريته بحماس وسخرية أيضاً ، إذ قلت : إنّ أولئك الذين تشير إليهم ، ممن يوحّدون الله ، ويؤمنون برسوله ، وأنّهم في ذلك يسلكون ما سلكه الصحابي الجليل أبي ذرّ عليه السلام عندما كان يتواجد أمام بعض مساجد المدينة ، ويؤذن المؤذن ، وتقام الصلاة ، ولا يشاركهم في ذلك ، وهو من أكثر الصحابة معرفة بالتّكاليف الشرعية ، وقد اشتهر عنه أنّه ، عندما كان يُواجه من ينتقده ، أو يحاول الإساءة إليه من خلال ذلك ؛ أن يمسك بعكازه ، ويهوي بها مخوّفاً ، وقد يلحق به وهو يقول مكرّراً : أتعلمنني ديني أيها الإعرابي . . وأنت تعلم أنّ أبا الذّر من مقدّمة الصحابة الذين التزموا دين الإسلام ، وترجموه سلوكاً في حياتهم ، وما كان يخاف في الحقّ لومة لائم ، فهو يعلم أنّ الصلاة فريضة ، وأنها عمود الدّين ، لكنّه يعرف أوقاتها ، وأنّ الأرض كلّها مسجد ، ولا يفرّط بصلاة واحدة من أجل أن يرضي الحكام ، والأمراء ، وأنّه إن كان في المسجد أمير يؤمّ المصلّين وهو ممن يعرف ضعف إيمانه ، أو ما ارتكبته يداه بحقّ المؤمنين في زمنهِ ما كان ليدخل المسجد مصلياً وراءه ، ومهما كانت العواقب . . . وطال الحديث ، وتشعّب ، ومن ثمّ دخلنا في صميم ما نحن قادمين من أجله ، وما أن أدرك الحقيقة المرّة التي توصّل إليها بعض من له يد في السلطة ، ووجهة النظر المطلوب منّا عرضها عليه ، حتى بدا عليه الارتباك والقلق . . واستطعت حينها لمّ الموضوع . . وما مرَّ ليلُ

ذلك اليوم حتّى كانت مشيئة الله أن تظهر غلبة القيادة السورية المؤمنة على معارضيها من عصابة الإخوان المسلمين إذ أمسكت بقيادتهم ، وضيقت على المتنفذين منهم ، لابل تتبعت فلولهم ، ومن ثمّ كانت القرارات الحكيمة ، التي صدرت عن القيادة لاستيعاب أولئك وقت ذاك ..

وإنني أرى نفسي هنا ملزماً بإلقاء بعض الضوء على بعض النقاط التي يتمسك بها خصوم هذا الشعب . وقد لاقيت وأخي وزميلي الشيخ فضل غزال بعض المتاعب بسببها ، عندما كنّا ندرس في النجف الأشرف ، والتي دفعت بي للقيام بجولات في أحياء النجف ، والكوفة ، والوقوف عن كثب على حقيقة ما تلاقيه الحوزة ، وعلماؤها من متاعب في تعليم بعض العامة التكاليف الشرعية العديدة ، وعلى رأسها الصلاة ، والحقوق الشرعية الأخرى . وكم سمعت من حكايا ، وقصص دراميّة ومأساوية ، واجهت العديد من العلماء ممن كلّفوا بتلك المهام لدى العشائر العراقية المتواجدة في الجنوب والشمال والوسط . لابل قمت بأكثر من سفرة إلى لبنان ، والكويت ، والبحرين وتعرفتُ على معانات العلماء فيما أشرت إليه . وقد التقيت بكثير من العوام ، وكنت أتقصد ذلك في كلّ مدينة كنت أمرّ بها أو قرية ، أو عشيرة ، وكم وجدتُ أنّ وعي من أنتمي إليهم وبمختلف أصنافهم يفوق وعي أولئك جميعاً ، وأنّ ما عندهم من عادات ، وتقاليد سيئة فرضتها الظروف التاريخية القاسية

، والتي كانت من مفرزات تلك المعطيات الحياتية من طائفية حاقدة ، بغيضة ، ومن دكتاتورية متسلطة عاشتها كلّ الفئات الإسلامية . وكم هو حريّ بنا نحن المسلمين ومن أي الطوائف والفرق كنّا ، أن نسعى معاً لاستبدالها بما هو أحسن ، وبما ينسجم والعقائد الإسلامية الصحيحة ، واضعين أمامنا قول الإمام علي (ع) : (لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم) [1]. ولنعمل معاً على التغيير بما فيه مصلحة الأمة الإسلامية ، ولنتجاوز سلبيات الماضي بنفوس مؤمنة راضية متطلعة إلى الأحسن والأفضل . عندها نرفع من شأننا ، ونعزّ ديننا ، ونضاهي الأمم الأخرى بما يشدّ من أزرنا ، ويقوي عضدنا ، قال تعالى : (إنَّ الله لا يغير ما بقومٍ حتَّى يغيِّروا ما بأنفسهم) [2] .

في ظلال شوادر التعزية

كثيراً ما تظهر في بيوت وتحت شوادر التعزية علائم خلاف وفرقة . إذ تسود أحاديث التعزية مسائل يعملُ على إثارتها منْ يريدون لهذا الشعب الفرقة والتشتت وغايتهم أنْ يخلو لهم الجو فيتمكنوا من رقاب الشعب ، وتتمّ لهم الرفعة والارتقاء على أكتاف الغير غير آبهين إلى المآل الذي يمكن أن يصل إليه هذا الشعب نتيجة ذلك من بعدٍ عن

---

1 . نهج البلاغة ج/20/ الصَّفحة /267 / .

2 . سورة الرَّعد / 11 / .

الدين وتعاليمه السمحة التي تشدّ على أيديهم ليكونوا صفاً واحداً ، لا بل كالبنيان المرصوص ، قال تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا) .

وإنّي لأدرك أنّ أولئك الذين ينفثون سمّ الفرقة في صفوف الشعب لا يدركون مغبّة ما يقومون به ، أو أنهم ممن لا ينظرون إلى أبعد من أنوفهم . . ولو كانوا ممن يفتحون عيونهم كما يجب لرأوا في الأفق الدّخان الذي ينتشر عن مراجل حقد الأعداء المتربصين بهم . ولو كانوا ممن يصحّ شمّهم ؛ لوجدوا الروائح النتنة التي تحيط بهم ، والصادرة عن الجيف التي أوجدها الخصوم بين ظهرانيهم . . وما الاستعمار والصهاينة عنْ ذلكَ بعيدون . .

وإنّي لآمل أن يعود هؤلاء إلى صفوف الشعب ويكونون في مقدمة من يعمل على نشر المحبّة ، والألفة ، ونزع فتيل الفرقة والخلاف .

وإليك بعضٌ ممَّا كان يسود مجالس التعزية منْ حوارٍ حولَ بعضِ مسائل كانَ يتقصَّد البعض من الحضور إثارتها والحوار فيها ، وكنتُ ممَّن يُشاركُ في حوارها وما كنتُ أتبنَّاه في إظهار ما على المؤمن معرفته منها والحكم الشرعي فيها .

تقدمة لابد منها

في كلّ مجلس تعزية ، وما أكثر هذه المجالس ، تكون مسألة مدّة التعزية ، والنفقة موضوع النقاش الحاد بين المعزّين ، وكثيراً ما كان

بغاية القيام بعملية فرز حقيقي للمعزين ، ليعرف من هم مع ذاك الفريق ، ومن هو مع الفريق الآخر . . ومنَ الطبيعي أن يتواجد من لا يهمه ذلك فلا يدخل نفسه في خضم النقاش فيتناول الحديث عما يلاقيه الشعب من قسوة الحياة ، ومتاعبها ، بسبب القوانين الاجتماعية ، والاقتصادية التي تسود العالم البشري ، وانعكاساتها عليهم بشكل أو بآخر .. وغايتهم من ذلك أن يشدوا الآخرين إليهم ومن ثمّ يجعلونهم يستمعون إلى ما يطرحونه ، وكثيراً ما كانوا ينفثون السموم عند تهيئة الجو المناسب ، وقيامهم بعملية تخدير للحضور ، حيث يتناولون الواقع الحياتي الذي يعيشونه . وغالباً ما يكون من بينهم أحد السياسيين المتمكنين المنتمين لأحزاب لها ارتباطها الخارجي ، وممن يجيد توجيه الطعنات بذكاء للدين وقيمه ، وللساسة والحاكمين ، ويخرج من التعزية وهو البطل الذي فاز بالنهاية ، ويخسر أولئك الذين شدّتهم العصبية إلى إخراج من لا يوافقهم على وجهة نظرهم عن الدين .

مسألة مدَّة التَّعزية وكيفيَّة النَّفقة

كان يدّعي البعض من الدَّاخلين في الحوار أنّ التعزية لثلاث والزائد عليها بدعة ، والبدعة ضلال وكفر. والنفقة ملغاة ووجودها بعدٌ عن الدين إن لم يكن كفراً أو ضلالا ، وحجتهم قول الإمام علي (ع) : التعزية فوق ثلاث تجديد للمصيبة .

أما أصحاب القول الآخر، فكانوا يدَّعون أنّ التعزية لسبع ، والنقص عنها ضلال ، أوخروج عن العرف الذي سار عليه الأجداد والنفقة واجبة ، ولا بدّ من الذبائح فيها ومهما كانت الظروف ، والخارج عن ذلك ، خارج عن الملّة والطريقة .

وكنتُ في حواري لهؤلاء وأولئك أضع بينَ أيديهم ما وصل إلى علمي مما ورد عن أهل البيت عليهم السلام من أنه إذا حضر المسلم أخاه قبل أن يسلّم الأمانة لباريها فإنَّ ما يجبُ عليه هو أنْ يلقِّنه الشهادة والولاية ، ومن ثمّ يوجهه إلى القبلة ، وبعد الموت يقوم بغسله وتكفينه ، وأنْ يُعْلِم النّاسَ . وقد ورد استحباب تشييع الجنازة ، والمشي معها ، وحملها ، وفي ذلك ثواب وأجر كبير ، وأن يصلّى على الجنازة من هو أولى النّاس بها ، أو يكلّف من يحبّ . والتعجيل في دفن الميت ، ومن ثمّ القيام بالتعزية لأهل المصيبة بعد الدفن وعند القبر ، وأنّه لِمَن عزّى الثكلى ، والمصاب ، والحزين أجر مثل أجورهم ، ولا ينقص من أجورهم شيئاً . . وأنَّه لم يصلْ إلى علمي خبر يحدِّدُ مدّة التعزية ، وكأنّ الأمرَ تُرِكَ للنَّاسِ وحسبَ ما تمليهِ الظروف . . وعليه فالتعزية مقبولة ليوم أو أكثر . . أما النفقة عن أرواح الموتى فهي مقبولة ومشروعة ما دام يُراد بها وجه الله . ولم يرد في تحديد كمها ، أو نوعها ، أو شكلها نصّ معتمد . . وعليه نستنتج أنها قد تكون في كلّ أوجه الخير المتعارف عليها ، أو تحت كلّ ما تشمله كلمة (في سبيل الله)

قلّ أو كثر . وهي غير محدودة بزمن ، وإنْ عُرِفَ عن السلف الصالح القيام بالزيارة في اليوم السابع أو الأربعين . . وفوق كلّ ذي علمٍ عليم . وإنّي لأرجو من الله أن يسدّد خطا هذا الشعب إلى الوفاق ، ويوفِّقهم إلى الترفع عن الخلاف في مسائل ليست هي من صميم الدّين ، وجوهره ، والتي بوجودها يوجد الإيمان ، وبدونها ينعدم الإيمان . . فللإيمان قواعده ، وللمؤمنين صفات ، وأعمال تعرّض إليها كتاب الله الكريم وسنّة رسوله العظيم وآل بيته الطيبين ومن سار على منهجهم إلى قيام يوم الدين . وعندنا من السّلف من تناول هذا الأمر ، ونقل عن الأعلام ما فيه خير لهذا الشعب ، فلتتعبوا أنفسكم بقراءته ، والتزود بمفاهيمه أيّها الأخوة إن كنتم تبغون الرشاد والهداية . وليعمل العامل منكم ما يوجبه عليه إيمانه وإسلامه من دون نكاية بأحد ، أو من دون طلبٍ لرياء أو جاه قال تعالى : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)[1] . وأنفقوا مما رزقكم الله ما شئتم ، وكيفما شئتم مبتغين بذلك وجه ربّ العزّة ، ففي ذلك تدوم المحبّة ، وتزداد أواصر الأخوة ، وتقوى بواعث الإيمان في النفوس ، فتسمو نفوسكم ، وتصفو أرواحكم ، وتصبحون بنعمة الله إخواناً .

مسألة الزكاة

---

[1] . سورة التَّوبة / 105 / .

لم يكنِ الخلاف فيما بينَ المتحاورين منْ أنَّها فرض ، أو في اعتبارها ركن من أركان الإسلام ، بل كانَ الخلاف يقع بينَ المتحاورين في أنّ البعضَ منهم كانَ يذهب إلى أنّ الزكاة من حقهم دون سواهم ، ولا يجيزونها لغيرهم من أصناف المستحقين لها ، كما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى : (إنّما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) [1] أو أنّ أصناف المستحقين لها وفق ما ورد في الآية الكريمة تنحصر بهم . وحجتهم في ذلك ما درج عليه الآباء والأجداد ، وعلى أنّهم هم العلماء ، ومنهم طلاّب العلم ، وهم المتصفون بالإيمان أكثر من غيرهم والقائمون بما يتطلبه الدّين من شعائر ، وهم العاملون على تعليم الدّين ، وحفظ القرآن الكريم ، والقادرون على إحياء أيّام وليالي الأعياد وشهر رمضان بالذكر والدّعاء والصّلاة ، وعلى هذا فالزَّكاة لا تعطى إلاّ للعالم العارف .

وذهب البعض الآخر إلى منع تقديم الزكاة إلى قسمٍ كبير من أولئك ، وخصوصاً الأغنياء منهم ، وقد أخذوا عليهم سوء التصرف بأموال الزكاة ، وأنَّهم يأخذونها ممن ليست هي واجبة في أمواله ، إذ قد تؤخذ ممن هو أحقّ بالزكاة منهم ، وقد يصل الحال ببعضهم إلى أن يخرج

---

[1] . سورة التّوبة /60/ .

الصنف الأول من الدين ، لابل يحمّلهم مسؤولية التخلّف الموجود ، وبُعد الشباب عن تطبيق فرائض الدين الحنيف .

ويتفاقم الخلاف بين هؤلاء وهؤلاء في هذه المسألة حتى صار الحديث اليومي بين الناس ، ونتيجة ذلك رُويتْ قصص وحكايات ، وابتدعت طرائف للنيل من بعضهم بعضا ، وإنّ ما هو على ألسنة الناس في هذا الموضوع ليمكن أن يؤلف منه مجلداً ضخماً يتسلّى به القارئ ، ويتمتع بمدلولاته ، والتي لا تخلو من فوائد أدبية وقصصية لا بأس بها . وكم تحدّثت في هذا الموضوع ، وما كنت أترك مناسبة تسنح لي إلاّ وبادرت الناس بذلك ، وقد جيرت قسماً كبيراً من الخطب التي كنت أقوم بها أيام الجمعات والأعياد . ودعوت الجميع فيها إلى الرجوع إلى القرآن الكريم ، وسنة رسوله محمد صلَّى الله عليه وآلهِ وسلَّم ، وسلوك آل البيت عليهم السَّلام . وقد قصصت للجميع ما جرى معي في النجف الأشرف ، وكنت حينها في المرحلة الأولى من الشباب ، حيث اندفعت في إحدى جلساتي بين يدي المرجع الأعلى آية الله السيد محسن الطبطبائي الحكيم رحمه الله ، وسألته متجرئاً ؛ كيف يكون موقفكم غداً أمام الله ، وأنت المرجع الأعلى ونائب الإمام الحجة عجّل الله فرجه ومليون مسلم علوي في سوريا لم يصرف من بيت مال المسلمين ما يساعدهم في نشر مذهب آل البيت (ع) ، أو في إشادة جامع ، أو مكتبة ، أو حسينية ، أو مدرسة ، أو معهد لتحفيظ القرآن الكريم ؟

فأجابني ، وهو ينظر إلي شذراً ، وفي لهجته عتب ، سيدنا : أنت تقول أن عددهم مليون نسمة ، فقلت له : نعم ، وقد يكونون أكثر . فقال : لن أقول لك ، لو يدفع الواحد منهم ليرة سورية واحدة كلّ يوم ، أو كلّ أسبوع ، أو كلّ شهر .. بل ليدفع الواحد منهم ليرة سورية كلّ سنة ، ألا يكون المبلغ كافياً لإشادة جامعة عندكم ناهيك عن مدرسة ، أو مكتبة ، أو جامعاً أو حسينية ، في كلّ عام .؟ .

وكم كان لهذا الجواب ، من أثر على نفسي ، ومنهجي ، وسلوكياتي في الحياة . إذ أدركت خطأ المشائخ في بلدي والقائمين على زمام أمور الدين ، ومدى تقصيرهم في تحمل المسؤولية تجاه الشعب .. ومنذ ذلك الحين ، وأنا اعتبر هذا الجواب ورقة عمل ، وخطة عليَّ أن أنهج وفقها وأسعى لتطبيقها ، وكم قمْتُ بتوجيهِ مَنْ همْ مِنْ حولي ومَنْ ألتقي بهم وفق رؤياي لصرف الزكاة ، وغيرها من الصدقات ، والنذور والكفارات وغيرها . . حسب ما يتطلبه الوضع ، والظروف ، وتسمح به القوانين ، والأنظمة المرعية .

وقد قمتُ بتوضيح وبيان كونِ الزَّكاة أحد الأركان التي بني عليها الإسلام ، وهي واجبة وضرورة من ضروريات الدّين ، التي من خلالها تدعّم أركان الدّولة والمجتمع ، ويُقوّى بنيانهما وتجعل الاقتصاد في أحسن حال لا بل تسود من خلال تطبيقها حياة اجتماعية سليمة من خلل الإقطاع ، وانتشار الفقر. إذ أنّ الله سبحانه قد فرض في أموال

الأغنياء ما يحتاجه من ابتلاه الله بالفقر ، وفيها السداد أو ما يكفيهم ليعيشوا حياة عزيزة كريمة خيّرة ، وقد ورد عن الإمام الصادق (ع) أنّه قال : (إنّ الله فرض للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم ولو علم أنّ ذلك لا يسعهم لزادهم . .) .

وإنّ وجوبها مشروط بكون المالك للمال بالغاً ، عاقلاً ، حرّاً ، متمكناً من التصرّف ، وبكون المال من الأنعام الثلاثة ، الإبل ، والبقر ، والغنم ، والغلات الأربع : الحنطة والشعير والتَّمر والعنب ، وفي النقدين الذهب والفضة .

ويشترط في وجوبها في الأنعام الثلاثة أربعة شروط لا بدّ من توفّرها ، في مقدّمتها النصاب ، ويمكن الرجوع إلى الكتب الفقهية لمعرفته . ومن ثمّ السوم طول الحول . وأن لا تكون عوامل على تفصيلٍ يمكن التعرف على مسائله من المراجع الفقهية المعتبرة ، وأخيرا مرور الحول وهي جامعة للشرائط السابقة .

أما ما يشترط لوجوبها في زكاة الغلات الأربع ، فأمران ، أولهما : بلوغ النصاب ، وهو يعادل ثمانمائة وأربعة وعشرين كيلو تقريباً . وثانيهما : الملك ، سواء كان بالزرع ، أم بالشراء ، أم بالإرث ، أو بغيرها من أسباب الملك .

وفي زكاة النقدين فيشترط بها مضافاً إلى الشرائط العامّة ، ما يلي : النصاب ، وفيه تفصيل يمكن الرجوع فيهِ إلى الكتب الفقهية لمعرفته

وإنَّ الضابط في زكاة النقدين ربع العشر . ثانياً) : أن يكونا مسكوكين بسكة المعاملة . ثالثاً) : الحول .

وتعطى الزكاة للأصناف الثمانية التي ذكرتهم الآية الكريمة ، على أن يتصفوا بصفة الإيمان ، وأن لا يكونوا من أهل المعاصي ، ولا ممن تجب نفقتهم على المعطي .

ولا شكّ في أنّ دفع الزكاة في هذه الأيام ، وفي مثل هذه الظروف التي يعيشها المسلمون ، وفي جوّ الفرقة والتشتت السائد ، والجهل المخيم ، والذي يتطلّب العمل الجاد من قبل جميع المؤمنين والمخلصين والشرفاء من أبناء الشعب ، يجب أن تجيّر الزكاة لما فيه خير الأصناف المستحقة لها ، وفي مقدمة ذلك تنوير العقول ، وتعليم الأبناء تعاليم الدّين السمحة ، والشعائر المفروضة (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب)[1] ويتمّ ذلك في دفع الزكاة إلى الفقهاء الجامعين للشرائط في زمن الغيبة ، والتي أشار إليها الإمام (ع) في قوله : (من كان صائناً لنفسه ، حافظاً لدينه ، مخالفاً لهواه ، مطيعاً لأمر مولاه فقلدوه ..) . ومثلُ هذا لن يقبلَ أنْ يأخذ الزكاة ممن هي ليست واجبة في ماله ، ولا يمكن أن ينفقها إلاّ في المواضع التي أوجب الله سبحانه وتعالى صرفها فيها . وسيكون ممَّن يخالف هواه وعاطفته ، ولن يقع تحت تأثير أيّ شيء عند إنفاقها ، بل سيصرفها وفق ما

---

[1] . سورة الحجّ / 32 / .

شـرّعها الله ، وبامتثـال كامـل لأوامـر الله . إذ أنّـه سـيكون مـتحملاً للمسـؤولية أمـام الله ، والمجتمـع ، وعليـه تقـع مسـؤولية تنـوير عقـول المسلمين وتطوير مفاهيمهم فيما فيه خدمتهم ، وخدمة النّاس أجمعين ؛ فيعمل على بناء المساجد وتعميرها بذكر الله ، وإقامة المدارس الدينية وإشادة معاهد تحفيظ القرآن الكريم ، وإيجاد المكتبات العامة ، وجميع المرافق العامة التي لها مفاد الخدمة العامة والنفع العام

وإنَّ النَّظرةَ الاجتهاديَّة عند الحسين بن حمدان الخصيبيّ في المرجعيّة هذه تتوقَّف على نظرةٍ اجتهاديَّة جماعيّة لا فرديَّة وممَّن لديهم ملكة الفهم ومن أهل الكفاءة والمقدرة على استنباط الحقائق والأحكام لقوله قدِّسَ سرّه في وصيَّتهِ الوداعيّة : (وقدْ عَمِلْتُ على أنْ أُنْشئ فيكم رجالاً تتوفَّرُ فيهم ملكةُ الفهم ليسْتنبطوا من الطَّرائق حقائق ، ومنَ الفروعِ أصولاً ، ومنْ أقوال مَنْ تقدَّمهم أحكاماً تنطبقُ على الأحكام الشَّرعيّة ، ويكونُ استنباطهم إجماعيّاً لا فرديَّاً .) [1]. ويحزّ في نفسي أنه لا يوجد من علماء هذا الشعب من يستوعب الواقع التشريعي الإلهي ويعمل به ؛ فالكلّ راكض وراء الدنيا ، ويلهث وراء الشهوات الزائلة ، ويحلّ لنفسه أن يأخذ أموال الفقراء والمساكين ، وما يجب أن يصرف في سبيل الله ، ومن ثمّ يشتري فيها الأراضي ، أو يبني فيها المساكن ، أو يتاجر بها ، وما له من غاية إلاّ زيادتها وتكديسها في مصارف وبنوك الدّول . وهو

---

[1] . وصيّة الحسين بن حمدان مخطوطة . (2) سورة التّوبة / 24 / .

مـع كـلّ هـذا يقـرأ قولـه تعـالى ويفهمـه (قـل إن كـان آبـاؤكم وأبنـاؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادَها ومساكنُ ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربَّصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) (2) . وفي هذه الآية الشريفة أكثر من إشارة تردع أمثال أولئك المدّعين للعلم أو الفقه من أن يتصرّفوا بما يخالف الشرع ومهما زينت لهم أنفسهم .

وإني أشدّ على أيدي المخلصين من علماء هذا الشعب الذين اتخذوا على عاتقهم العمل ووفق طاقاتهم ومجالاتهم إصلاح حال المسلمين وفي مختلف الجوانب الحياتية الاجتماعية منها والدينية ، وإني لأرجو من الله أن يقيض لهذا الشعب من يأخذ بيديه فيعرفه على منهج آل البيت (ع) ويكون ممن يعمل وفق معرفته ، ويلتزم برأي الحسين بن حمدان الَّذي أوضحه وأكَّد عليه في وصيّته الوداعيّة حيثُ قال : (فإصلاحنا الاجتماعيّ أصبح متوقِّفاً على نظرة اجتهاديَّةٍ يقولها جميع المفكّرين في عصرنا الحاضر . . . وإلى قوله : ويكونُ استنباطهم إجماعيَّاً لا فرديَّاً) وممَّن يكون العلم والعمل مقرونان عنده وبذلك تنتفي الجهالة ، ويرتفع التقليد للآباء والأسلاف والكبراء ، وتذهب أدراج الرياح أقوال ورسائل أولئك الذين يجتهدون وفق معطيات عقولهم في ما دقّ وجلّ من الأشياء .

وأني لأعجب أشدّ العجب من أولئك الذين يحرمون فقراء ومساكن المؤمنين الزكاة بحجَّة أنهم لا يستحقونها ؛ لأنّ الله لو أراد رزقهم لرزقهم وهو الرزّاق ذو القوة المتين . وهم مع هذا يحلِّلونها لأنفسهم مع أنّ الزكاة قدْ تجب في أموالهم وعليهم إخراجها إلى العاملين عليها ممّن منحتهم المرجعيّة الجماعيّة في كلِّ بلدة أُمِر أهلها بالرّجوع إليهم ، وقد تجيزُ المرجعيّة التَّصرُّفِ بالحقوق العامّة منْ زكاةٍ وغيرها لبعضٍ منْ أولئك الوكلاء العارفين كلِّيّاً ، أو بالنُّصفِ ، أو بالرّبع وبما تراه في خدمة أهل البلدة ، كما ورد على لسان .

ولا شك أنَّ أولئك المشائخ الَّذين يأخذون الزَّكاة لأنفسهم ويمنعونها مساكين المؤمنين والمسلمين بحجَّة أنَّهم لا يستحقُّونها ، وأنَّ الله لو شاء لرزقهم ، قد قرؤوا قوله تعالى الذي يردّ فيه جلّ شأنه على الَّذين كفروا وقد ادَّعوا مثل ادعائهم هذا حيث قال سبحانه وتعالى : (وإذا قيل لهم أنفقوا ممّا رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلاّ في ضلال مبين) [1]. وقد قال سبحانه وتعالى : (إنّما الصّدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليمٌ حكيم) (2) .

مسألة تقبيل الآيادي

---

[1] . سورة يس / 47 / . (2) التوبة / 60 / .

منذ قديم الزمان عرف النَّاس تقبيل اليد ودعا إليها المتنفِّذون من أصحاب الدِّياناتِ السَّماويّة على مرِّ الزَّمن . ولاقتْ في تلك المجتمعات تأيّيداً ومعارضة . وقد درج عليها المسلمون ، ومن مختلف المذاهب ، والملل والنحل ، واتخذت طابعاً مميّزاً لدى أكثر المسلمين في العصر العبَّاسيّ وما بعده ، وقد وجد في تلك المجتمعات معارضون ورافضون ، وقد كان هناك إجماع على رفض أنْ يُميّز من خلالها المحبّ الملتزم بالدّين عمّن يدير ظهره لتعاليم الدّين المتمثّلة برجالاته القائمين على تطبيق شعائره ، أوجعلها المقياس والميزان في مجال إظهار التَّقدير والاحترام . وما زالتْ حتّى هذه الأيَّام موضع نقاشٍ وجدال بينَ أبناء هذا العصر . وقدْ عُرِفَ لدى شعوب أخرى أشكالاً غير تقبيل اليد لإبداء الاحترام والتكريم كتقبيل الجبهة بدلاً منها ، أو وضع الكتف على الكتف بالتبادل ، أو رفع الطاقية عن الرأس والانحناء بمقدارٍ ينسجم وقته مع جلالة من يرغب إظهار الاحترام له ، أو غير ذلك مما عُرِفَ عن بعض الشعوب كوضع الأنف على الأنف ، أو ضمّ اليدين إلى بعضهما ووضعهما أمام الفم ومن ثمّ الانحناء بكامل الجزع ، وغيرها .

وقد اشتدّت الحملة في أوائل السبعينات من القرن التاسع عشر على أولئك الذين يُقبّلون أيادي المشائخ والسادة من رجال الدّين في منطقتي ، وقد رافقها حملة شعواء على الدّين وتعاليمه ، تزامنت مع انتشار الاشتراكية بين صفوف الشباب المثقّف . وكم توجهت إليّ الأسئلة من

طـلاّب الثانويـات التـي كنـت أدرّس فيهـا مـادة التربيـة الإسـلامية بخصوص هذا الموضوع وعن مدى علاقته بالدّين الإلهي وتعاليمه .. وكم وصل إلى مسامعي من قصص وأحاديث ومناظرات جرت بين أبناء رجالات الدين وآبائهم الذين صفّوا مع المعارضة ضد مسلكهم في هذه المسألة وقبولهم لها . . وما كان من ردود الفعل لدى المشائخ والقائمين بشعائر الدّين وأولئك الذين تبنّوا المبادئ الاشتراكية . وكانت حرباً باردة اشتدّ أوارها ومن ثمّ مالت مدّة السبعينات لصالح الشباب المثقّف المدعوم بروح الحرية والاشتراكية وتعاليمها وما قدّمته من إنجازات علميّة ، وفي كلّ مضمارٍ من مضامير الحياة .

وقد التزمت في إجاباتي ما كنت أراه النهج الصحيح الذي وفّقني الله إليه ، إذ كنت أستقي إجاباتي من تعاليم آل بيت رسول الله عليهم أفضل الصَّلاة والسَّلام ، واعتمدت على ما ورد في القرآن الكريم من وجوب الاحترام والإحسان إلى الوالدين ، والبرِّ بهما بما يليق . . كقوله سبحانه : (وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحسانا) ، وقوله جلّ شأنه : (ولا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما) ، ومن ثمّ بما وقع في يدي من أحاديث الرسول (ص) وآل بيته الطّاهرين عليهم السّلام .

وقد نجحت في الحدّ من انتشار الهجمة على الدّين ، والحدّ من العبارات التي كانت تخرج من أفواه المشائخ ورجالات الدّين ضدّ أولئك

الذين غرّر بهم من الطلاّب حتى رفضوا الدين من خلال رفضهم لتقبيل الأيادي ولأيّ كان من أبناء البشر إذ اعتبروها العبوديّة المرفوضة التي درج عليها المستعمرون لإذلال الشعوب ، وقهر النفوس . وكان نجاحي نتيجة الإستراتيجية التي اتخذتها في إجاباتي على المسائل المتعلّقة بها حيث اعتمدت الروح المرنة التي تتماشى وروح العصر مع الالتزام بسنّة الله ورسوله القابلة للتطبيق في كلّ عصرٍ وزمان إذ أوضحتّ للطلاّب أن الاحترام مطلوب ، ولا بدّ له من مظهرٍ مادّي يفهم من خلاله ، والأدب ضروري ولا بدّ منه حتى يعيش النّاس بكرامتهم ، فيقدّرون من هو أهل للتقدير والاحترام ، ومن ليسوا كذلك . . وأنَّ الآداب تتغيَّر مع الزَّمن وأنَّ أمير المؤمنين عليه السَّلام قد نهى عن إجبار الأولاد على آداب الآباء بقوله (ع) : (لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنَّهم مخلوقون لزمانٍ غير زمانكم)[1]. ولا شك في أن الناس تتفاوت في التعبير ، وكلّ أمة لها شكلّ درج عليه أبناؤها في إظهار الاحترام لمقدّساتهم ، وها هي روسيا الدّولة الإشتراكية المتزعمة للفكر الاشتراكي في العالم تنهج في ذلك رفع القبّعة عن الرأس ، والانحناء أمام تمثال زعيمها لينين ، وماركس ، وما هؤلاء إلاّ عبارة عن رجال لهم ماضٍ حياتيّ لو تعرفونه لرفعتم من مكانة من تضعونهم من أبناء هذا الشعب قياساً بهما وهكذا الحال في بلاد أوروبا المتقدمة والمتحضِّرة ؛ فإنهم

[1] . نهج البلاغة ج / 20 / ص / 267 / .

يقبلـون أيـادي النّسـاء كعـادة سَـلَكوها وعاشـوا علـى تقـديرها والمحافظـة عليهـا ، ومـع هـذا فمـا كانـت لتعرقـل مسـيرة التقـدّم والحضـارة ، وبـذلك تبطـل حجّـة القـائلين بـأنّ مسـألة تقبيـل الأيـادي تعرقـل مسـيرة التقـدّم والحضـارة ، وادّعـائهم بأنها هـي سبب تخلّف الأمـة الإسلامية . والواقـع يؤكـد أنّ لكـلّ أمّـة أعـراف وعـادات تتمسـك بهـا ، ونحـنُ المسـلمين لنـا أعرافنـا وعاداتنـا ، وفـي منهجنـا القرآنـي الـذي نعتمـده والسنّـة المحمّديـة ، مـا يجعلنـا نسـير مـع التقـدّم الحضـاري والإنسـاني ، ولنـا الحـقّ فـي تغييـر كلّ مظهـرٍ مـن مظـاهر الحيـاة التـي لا تليـق بالإنسـان ، وحسب الزمن وعطاءاتـه . وفـي قـول أميـرِ المـؤمنين عليـه السَّـلام وضـوحٌ وبيـانٌ لمثـلِ تلـك المسألة ويمكـن أنْ نعتمـد عليـه ونتَّخـذه استراتيجية سليمة ننهجهـا فـي الحيـاة ، ولا مـانـع لـدى الدّين الإسـلامـي أن تتغيّـر العـادات بمـا ينسـجم مـع سـعادة وتقـدّم الإنسـان وكنـت أدعّـم حـديثي بمـا لـه صـلة بـارزة بـآداب الـدين المطلوبـة علـى أنّ أدب الـدّين قبـل الـدين ،وأنّ مـا لا ديـن لـه لا عقـل لـه . . وحدّثتهم عـن آداب الحديث ، والطريق ، والتعامل ، ودخـول البيـوت . . ومـا إلـى ذلك ممـا قـدّرني الله علـى بيانـه وقـت ذاك . وأحمـد الله أنني اسـتطعت امتصـاص الغضـب والنفـور لـدى الشَّـباب وذلـك عنـدما أكَّدْتُ علـى أنّ للشباب الحريـة فـي إظهـار الاحتـرام لمـن هـو أهـل للاحتـرام كـالأب المـادي والروحـي لفضـلهما الـذي لا ينكـره عاقـل ، أو لغيرهمـا ممـا درج النـاس علـى احترامهم لكبـر سنّهم أو لأعمالهم الطيبـة الصـالحة ، أو

لِما اتُّصفوا بـهِ منْ صفاتٍ حميدة وبالشَّكلِ الَّذي يقتنـع بـه المرءِ سواء كان بتقبيل اليد أو بإخفات الصوت لدى الحديث معه ، أو بالانحناء لـه وبالشكل الـذي يـراه المـرءِ مُنْسـجماً مـع احتـرام نفسـه واحتـرام غيـره . . وعلـى أنّ رجـال الـدّين ، أو الآبـاء ، أو غيـرهم ممـن هـم أهـل للاحتـرام والتقدير عليهمْ ألاّ يمتعضوا من الشباب فيما إذا لم يظهروا الاحترام لهم بالشكل الذي قد درجوا عليه . . وأن يكفّوا عن تلك التعابير التـي كـانوا يطلقونـها فـي وجـه أولئك الذين كانوا يرفضـون تقبيل الأيادي .. والمهمّ أن يبقى الاحترام ، ولو بأية صورة من الصور .

ويحضرنـي هنـا نـادرة جرت معـي ، أحبّ أن أسجلها زيـادة إيضـاح ، مرت شـهور وسنين علـى خـوض الحديث فـي المسألة وبعـد أنْ هدأت أمور الخوض فيها . شاءتِ الأقدار أنْ يذهب بعض الطلاّب في بعثةٍ تعليميـة إلـى الخـارج ، وكـانَ منـهم ممَّن يحمل رايـة المعارضـة الشّـديدة لتقبيل اليد ولأيٍّ كان من بني البشر أباً أو أمّاً أو عالماً . ومنْ ثمَّ يرجع أحدهم بعد بضـع سنين من بعثتـه ، وتـأتي الصّدفة ، حيث كنت أسير في الطريق وعنْ بُعْدٍ طلّ عليَّ ذلكَ الطَّالبُ العائد من بلاد الغربة وكانَ مـن أكثـر الطلبـة فـي الثانويـة هجومـاً علـى مـن يقبِّل اليد ويحملُ رايـةَ المعارضة لها والرَّافضين لها كما أشرتُ .

وقد لحظتـه ينحنـي علـى يد امرأة ويلثمها ، فدهشت للأمر واستغربت فعلتـه ؛ لأنّـه كـان ممـن يـرفض تقبيـل يـد والديـه نـاهيك عـن الآخـرين ،

فتباطأتُ في السيّر ، رغبة في أن أحدّثه فيما رأيت ، بعد أن تمثلت أمامي مواقفه في الصف وعناده ورفضه المطلق لهذه العادة . . ومرّت دقائق حتى افترقا ، وكان على الشاب أن يواجه أستاذه ويجيب على أسئلته ، توقف الشّاب ، وأبدى احترامه وتقديره ، وكان مؤدّباً مهذّباً لبقاً ، وذا ألفاظ رقيقة ، دلّت على صدق مشاعره ، وطيب أريحيته ، قابلت ودّه ، وحسن تصرفه بودّ ومحبّة ، وأثنيت على أخلاقه ، ولكنني مع هذا وجدتُ نفسي قائلاً له : لا أكتمكَ أنني كنت أراقب سلامك وترحابك بالشّاب والفتاة التي كانت معه ، وقد استغربتُ ما قمْتَ به . . قاطعني الحديث ، وبلطف قال لي : تقصد ما قمتُ به من تقبيلِ يدِ تلك الفتاة ؟ فقلت له : ما عهدتك إلاّ ذكياً ونبهاً ، نعم . فقال : أستاذي الكريم ، إنّها من بنات الجامعة التي كنت أدرس فيها خارج القطر ، وإنّ العادة هناك أن يقبِّلَ الشابُّ يد الفتاة ، وإلاّ اعتبر غير مهذّب ولا يعرف من أصول اللياقة والآداب شيئاً ، وقد تزوج تلك الفتاة التي قبلت يدها أحد زملائي ، وقد أردتُ ألاّ يتغير عليها شيء مما ألفناه هناك في بلادها فقلت : سبحان من يغيّر ولا يتغيّر ، لقد تمثّلتك أمامي غاضباً ثائراً ، رافضاً ، ومتّهماً من يقوم بما قمتَ به منذ قليل ، بالرجعية ، والعبوديّة ، والتخلّف ، وما كنت لتترك من صفة غير مقبولة في العرف إلاّ وتلصقها بمن يقبّل الأيادي وها أنت تقوم بما كنت ترفضه ، وتدّعي الآن أنّه من اللياقة والحضارة والإنسانية . . قاطعني حديثي وأظهر

أسفه ، وأوضح لي أنّ ما كان ، إنّما هو من تأثير التوجيه السياسي الذي كان يتلقاه من دعاة الاشتراكية والشيوعية والتقدم والحضارة ، وأنّه قد وجد في بلدان التقدم والاشتراكية أن ذلك لا عيب فيه عندهم ، وأنّه من المظاهر الإيجابية ، وقد قام به هناك بقناعة ورغبة ، وأنّه الآن لا يعترض على تقبيل اليد من حيثُ هي إن صدرت عن محبّة واحترام ، عندها تركته على أن نتقابل لنكمل الحديث فيما بعد على أنّ المكان والوقت لا يليقان ، ولا يفيان بالغرض .

وهنا أريد أن أشير إلى أنّ الحياة في المجتمعات البشرية تتنوّع عاداتها وتقاليدها ، وقد تختلف من أمّة إلى أخرى ، وهذا ما دعا إليه الإمام علي عليه السَّلام في قوله الَّذي سبق .

مسألة الطَّهارة

نادراً ما كان يحدث الحوار فيه في مجالس التعزية . إلاّ من أصحاب الطرق الصوفية ، وبما له علاقة ببعض الأحكام العبادية ، حيث أن مسائل الشرع كانت تطرح في كلّ لقاء مع طلاّبي والمصلين في الجوامع . أمّا أصحاب الطرق الصوفية فكانوا يتعرّضون إلى بعض المسائل العبادية المتعلقة بالغسل والوضوء ، أو الصلاة ، أو الصيام .. وكنت أستشعر من السائل منهم أنّه ممن هو مؤمن بوجوبها ، إلاّ أنه يعطيها مصاديق غريبة ، وسأسجل بعض الحوارات التي دارت

بيني وبين بعضهم في بعض التعازي عندما كان يصفو المجلس ممن لا يرغب الاستماع إلى أحاديثهم .

في أحد المجالس توجه إليَّ أحدهم وقال : لا شكّ في أنّك تؤمن بأنّ دين الإسلام دين يسرٍ وليس بدين عسر وأنه سبحانه لا يكلف النفس إلا وسعها وأنّ تعاليم الله جلّ شأنه وأحكامه لا تناقض فيها ولا خلاف . فقلتُ له : إنّ ما تشير إليه بديهي ، وكلّ مسلم يسلّم به ، ويدين به . . . فقاطعني متسائلاً : إذاً أيّهما أيسر على الإنسان وأسهل ، أن يتعوّذ المرء من الشيطان الرجيم ، ويتبرّأ من أتباعه وأشياعه في يوم بارد قارس ، وهو في فراشه متلحفاً بما يقيه شرّ البرد وضرره . أو أن يقوم من فراشه فيغتسل معرّضاً جسده لمخالب سوء الطقس فيصاب بالأذى والهلاك ؟ وأيهما أيسر أن يبقى في فراشه في ليالي الشتاء الباردة يذكر ربّه ويصلّي له داعياً ومناجياً إياه بما أمر .. أو يقف بين يدي الله بعد الغسل أو الوضوء معرّضاً جسمه للبرْدِ القارس الَّذي يمكن بسبَبِه أن يصيبه من الأذى ما لا تُحْمَدُ عقباه ؟ . . فقاطعته معلناً إدراكي لما يعنيه ، وقد فهمتُ أبعاد ما يرمي إليه . فقلتُ له : بالله عليك . ووضعتُ يدي فوق رأسه . والله شاهد على أن تقول الحقّ ، وأخذتُ منه العهد على ذلك . وأكملت حديثي بعد تكرار القسم على أن يقول الحقّ : لو أنّ نجاسةً وجِدَتْ على بدنك أو ثوبك ، وأردتَ إزالتها أو أمرتَ بإزالتها ، فهل لو تعوذتَ من الشيطان الرجيم آلاف المرات أو لعنت

الشياطين برمتها ، وأنت عارفٌ لمسمياتها ، ومن ثمّ تبرّأتَ من الشيطان وحزبه وأتباعه ومنذ آدم (ع) وحتى أيامنا هذه ، ولم تترك عدوّاً لله أو مخالفاً له ، إلاّ شتمته وتبرّأتَ منه . . هل بربك بعد هذا كلّه إن فعلتَه تُزَالُ النجاسةُ عن بدنك أو ثوبك ؟ فسكت ومن ثمّ تردّد في الجواب فقمتُ بتذكيره بالعهد والقسم ، فأجاب بعد اللتي واللتيا : إنّ النجاسة باقية رغم ما يقام به من براءة وشتم للشيطان وحزبه . . عندها قلتُ له : اعلم إذن كيف يكون الإسلام يسراً وليس بعسر . وكيف أنّ الله سبحانه لا يكلّف نفساً إلاّ وسعها ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . فالإسلام دين الله الَّذي ارتضاه لعباده علّم النّاس أيسر الطُّرق وأسهلها وأكملها لإزالة النجاسة ، والله العالم بكلّ شيء فكانت أوامره وتعاليمه أن تزال النجاسة بالماء والماء هو الكفيل بتطهير جسدك وثيابك من النجاسات في شرعه سبحانه . ومن ثمّ ألم تر أنّه إذا صببنا الماء على مكان النجاسة أو قمنا بغسل المتنجّس به يطهر . فسكت ولم يحر جواباً .